القسم الثانى

الفلسفة والمجتمع

obeikan.com

الفلسفة والتلفزيون (*)

الفلسفة فى بلادنا سيئة السمعة ، وهذا أمر ليس بمستغرب فى مجتمع يتخذ موقفاً عدائياً من العقل ، ويطمئن أقصى غايات الطمأنينة للخرافات. فالناس فى بلادنا لا يتفقون على شىء قدر اتفاقهم على الشك فى الفلسفة وقيمتها وجدواها. فالفيلسوف عندهم رجل سفسطائى ثرثار ، أو ملازم لبرجه العاجى بعيداً عن الواقع العملى الملموس ، وإذا أحسنوا به الظن فهو متخصص فى المجرد والعام. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا لا نكاد نعرف اسماً لفرع من فروع المعرفة قد أصابه ما أصاب الفلسفة من عداء وتندر واستنكار عند الكثرة الغالبة من الناس ، ولذلك كثيراً ما نسمع العبارة الآتية تتردد فى حياتنا اليومية: "بلاش فلسفة".

إن الجهل بمعنى الفلسفة جعل العبارة السابقة تتردد على لسان جمهور العامة ، كما أن الجهل بمعناها جعل لفظ الفلسفة يرتبط فى أذهان الناس بمفاهيم هى أبعد ما تكون عن الروح الحقة للفلسفة. واللافت للنظر أن الرجل العادى لا يقول للمتخصص فى الرياضيات "بلاش رياضيات" ، ولا يقول للمتخصص فى الطبيعيات : "بلاش طبيعيات" ؛ لأن الرجل العادى يدرك أنه لا علم له بالرياضيات أو الطبيعيات. أما فيما يتعلق بالفلسفة ، فهو يعتقد خطأً أنه يعرف معنى الفلسفة ، فى حين أن جهله بالفلسفة لا يقل على الإطلاق عن جهله بالرياضيات أو الطبيعيات.

إن عبارة "بلاش فلسفة" غالباً ما تأتى على لسان بعض أبطال مسلسلات

(*) جريدة "السياسة" الكويتية ، فى ٢٤ / ١١ / ١٩٩٣.

وأفلام التلفزيون لتعبر – بطريقة ضمنية – عن أن ما هو فلسفة ليس سوى خليط من حجج غامضة يكتنفها ضباب دون أن يكون لها معنى مفهوم. قد يقال دفاعاً عن ورود هذه العبارة فى المسلسلات والأفلام: إن المؤلف أو كاتب السيناريو أراد أن يكشف عن جهل شخصية ما ونقص ثقافة صاحبها، فجعل من يمثلها ينطق بعبارة (بلاش فلسفة) تعبيراً عن جهل الشخصية بالمعنى الحقيقى للفلسفة لا تعبيراً عن عيب أو نقص فى الفلسفة ذاتها.

ولكن ماذا نقول عن حرص مذيع رياضى ، أثناء وصفه لمباريات كرة القدم بالتلفزيون على ربط الفلسفة بـ "الجهل" أو "البلاهة" أو "التعقيد" ، وكأن هذه المعانى السيئة هى مرادفات للفلسفة. فعندما يفشل أحد اللاعبين فى تسديد الكرة أو تمريرها على نحو جيد ، تفاجأ بهذا المذيع يصرخ ساخطاً: (.. . بلاش فلسفة. . عايز يتفلسف). ولقد ظننت فى بادئ الأمر أن ربط الفلسفة بهذه المعانى السيئة هو زلة لسان من جانب المذيع ، فمن غير المعقول أن يؤتمن شخص على مخاطبة ملايين المشاهدين وهو لا يملك القدرة على التمييز بين معانى الألفاظ ، ولكن من خلال متابعتى لهذا المذيع اتضح أننى كنت مبالغاً فى حسن ظنى ، إذ إن كثرة ترديده لعبارة (بلاش فلسفة. . عايز يتفلسف. . .) حين يخفق أحد اللاعبين ، إنما تكشف عن أن الأمر ليس مجرد زلة لسان ، بقدر ما هو اعتقاد بأن الفلسفة هى بالفعل جهل وبلاهة وتعقيد ، ومن هنا كان حرص المذيع على نصح اللاعبين بضرورة الابتعاد عن الفلسفة والتفلسف.

ألا يعلم أولئك الذين يسيئون الظن بالفلسفة ، عن عمد فى بعض الأحيان وعن جهل فى أغلب الأحيان أن الفلسفة فى أحد تعريفاتها هى محبة الحكمة ، وأن كل التعريفات المتعددة التى أعطيت للفظ فلسفة على مر العصور لم يكن من بينها تعريف واحد يربط بين الفلسفة من جانب والجهل

والبلاهة أو الغموض من جانب آخر ؟! إن استقراء تاريخ الفلسفة إنما يكشف لنا عن عكس ذلك ، إذ يكشف لنا أن عدداً كبيراً من الفلاسفة جعل من الفلسفة مرادفاً للوضوح والدقة والإحكام.

إن أخطر ما نعانى منه هو أننا كثيراً ما نتكلم لا لنقول شيئاً له معنى ، بل نتكلم لمجرد أن لدينا القدرة على الكلام. إن هواية مضغ الهواء وتحريك اللسان فى الحلق التى يحلو لبعضنا أن يمارسها ، إنما هى تضر أكثر مما تنفع بخاصةٍ إذا كانت ممارستنا لها تتم على الهواء مباشرةً وأمام ملايين المشاهدين. إننى أعتقد متفقاً فى ذلك مع الفيلسوف المعاصر "لدفيج فتجنشتين" Wittgenstein (1889 – 1951) : "إن ما يمكن قوله على الإطلاق ، يمكن قوله بوضوح ، أما ما لا نستطيع أن نتحدث عنه ، فلابد أن نصمت عنه".

الدين والعلم والعقل العربى(*)

إذا كان عصرنا هو عصر العلم. فإن هذا لا يعنى على الإطلاق إنه لم يعد للدين مكان فى عالَم اليوم ، بل الأقرب إلى الصواب هو التأكيد أنه كلما ازهر العلم ، ازدادت حاجتنا إلى الدين. فالعلم لا يستبعد الدين بل يحتاج إليه ، لأن العلم فى ذاته هو قوة عمياء ، أو بتعبير آخر هو قوة محايدة يمكن توظيفها لخدمة البشر ، كما يمكن وبالقدر نفسه توجيهها لتدمير العالَم والإنسان. تماماً كعود الثقاب فى وسعنا أن نضىء به شمعة تنير لنا الطريق ، وفى مقدورنا أن نشعل به حريقاً يدمر حياتنا ، العلم إذاً ليس خيراً أو شراً فى ذاته، ومن هنا فهو أحوج ما يكون إلى قيم رفيعة تقوده نحو خير الإنسان ورفاهيته. وفى يقينى أن الدين هو النبع الأصيل لهذه القيم الرفيعة.

وإذا تأملنا مسار العلم فى الحضارة الغربية ، نجد أنه بسبب غلبة النزعة المادية وغياب القيم الدينية الرفيعة ، تم استغلال العلم فى صناعة الدمار لا العمار. إذا تم إنفاق الأموال وإهدار الوقت وتكريس الجهد والطاقات لصناعة أسلحة الدمار الشامل التى يطالبون اليوم بالتخلص منها. ولنا أن نتخيل مدى الخير الذى كان سينعم به البشر لو أن كل هذه الأموال والجهود تم استغلالها من أجل البحث عن علاج للأمراض الخطيرة " كالسرطان " و"الأيدز" وغيرهما ، أو من أجل استصلاح الأراضى وتحويل مياه البحر إلى مياه صالحة للزراعة والشرب . لماذا لم يحدث هذا ، وحدث العكس ؟ ! لغياب القيم الدينية النبيلة الكفيلة بتوجيه دفة العلم نحو خير الإنسان.

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ١٩٩٥/١٢/٢٢.

إن هذه الدعوة إلى استرشاد العلم بالقيم الدينية، لا تعنى على الإطلاق النظر إلى الدين والعلم بوصفهما مبحثاً واحداً ، كما يحلو لبعض الباحثين أن يفعل ذلك. إذ يذهب هؤلاء إلى القول بأن القرآن الكريم يتضمن نظريات علمية أثبت العلم المعاصر صحتها. هذا القول ينطوى فى – رأيى– على مغالطات دينية وعلمية، إذ إن الربط بين الدين والعلم على هذا النحو يسئ إلى كل منهما، لأن من يحاول أن يدلل أو يبرهن على أن بعض النظريات العلمية تلتقى أو تتفق مع بعض الآيات القرآنية، فإنه بمحاولته هذه إنما يعلن ضمناً أن الدين فى حاجة إلى دعم أو سند من خارجه، وفى اعتقادى أن هذه الوجهة من النظر هى أبعد ما تكون عن الصواب. لأن الدين نسق متكامل لا يحتاج إلى دعم خارجى، حتى وإن كان مصدر هذا الدعم هو العلم.

وإذا كان الترويج للفكرة القائلة بوجود علاقة وثيقة بين الدين والعلم يسىء إلى الدين – كما أوضحنا فى الفقرة السابقة – فإنه يسىء أيضاً إلى العلم. لأن ترسيخ هذه الفكرة فى عقول الناس ، وبخاصةٍ العلماء منهم ، قد يؤدى إلى إعاقة مسيرة التقدم العلمى. إذ قد يترتب عليه اضطرار رجل العلم إلى التوقف عن إكمال أبحاثه إذا ما لاح أمام ناظريه ، من خلال التجارب التى يقوم بإجرائها ، أن النتيجة النهائية التى قد يتوصل إليها سوف تبدو متعارضة مع النص الدينى ، أما إذا تجاسر واستمر فى أبحاثه ، معلنًا نظريته بعد التحقق من صحتها ، فإنه سوف يُواجَه فى هذه الحالة بأبشع تهمة وهى الكفر والزندقة ، والعياذ بالله. وليس ببعيد موقف رجال الدين المسيحى واضطهادهم لـ "جاليليو" عالِم الفلك الشهير ، الذى تجاسر وقدم الأدلة والبراهين العلمية على صحة نظرية "كوبرنيقوس" القائلة بدوران الأرض حول الشمس ، ورفضه نظرية "أرسطو" و"بطليموس" فى أن الأرض هى مركز الكون ، وأنها ثابتة تدور حولها الشمس والكواكب السيارة السبعة فيما يسمى

بالسموات السبع، وإذا كان المألوف أننا جميعاً نسلم اليوم بصحة النظرية القائلة بدوران الأرض حول الشمس ، فإن الأمر لم يكن مألوفاً على هذا النحو عندما ظهرت هذه النظرية لأول مرة ، إذ كان رجال الدين المسيحى يعتقدون أنها تتعارض مع النص الدينى ، ومن ثمَّ اضطهدوا المدافعين عنها من العلماء. وأصدرت محاكم التفتيش فى البندقية وروما أحكاماً بإعدام بعض العلماء على المحرقة بتهمة الإلحاد والزندقة.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن من يحاول إيجاد رابطة أو علاقة بين أحدث النظريات العلمية وبعض الآيات القرآنية ، إنما يفترض ضمنًا الثبات الدائم لصحة النظريات العلمية. وهذا الافتراض يتعارض مع الروح الحقة للمعرفة العلمية. إن أهم خصائص العلم هو التغير وليس الثبات. فالنظريات العلمية التى كنا ننظر إليها على أنها صحيحة منذ سنوات قد أثبت العلم بطلانها ، كذلك الأمر بالنسبة للنظريات التى نتعامل معها اليوم على أنها صحيحة قد تكشف الأبحاث المقبلة عدم صحتها.

التطور والتغير هما إذن من أهم سمات العلم ، فى حين أن النص الدينى يتصف بالثبات ، فماذا يكون التصرف إذا ما ربطنا بين آية قرآنية وبين نظرية علمية ، ثم اكتشفنا بعد فترة من الزمن – عن طريق البحوث العلمية اللاحقة – أن هذه النظرية باطلة ؟ هل سوف ينسحب هذا البطلان – لا سمح الله – على الآية الكريمة التى ارتبطت بها ؟!

قد يبادر أحد القرَّاء قائلاً : إن أحدًا لا يربط بين الآيات القرآنية وبين النظريات العلمية المتغيرة ، وإنما يتم الربط بين الآيات القرآنية وبين الحقائق العلمية الثابتة.

وليسمح لى هذا القارئ الكريم بأن أهمس فى أذنه قائلاً: لا توجد حقائق ثابتة فى مجال العلم ، وإن من يردد هذه الحجة إنما يسعى إلى تبرير ربطه بين بعض الآيات القرآنية وبعض النظريات العلمية التى كان لها من الدعم العلمى حظاً أوفر. ونتيجةً لهذا الدعم يتم النظر إلى هذه النظرية أو تلك بوصفها حقيقة علمية ثابتة. غير أن هذا القول بوجود حقائق علمية ثابتة هو أحد مخلفات الفيزياء الكلاسيكية التى ظلت سائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، لكن مع بداية القرن العشرين تم الكشف عن نظرية النسبية لأينشتين ونظرية ميكانيكا الكم الحديثة (الكوانتم) لبلانك ، وأدى هذا الكشف إلى إعادة النظر فى فكرة القوانين الطبيعية. كما أوضح هذا الكشف أن العلم لا يخضع لمبدأ الحتمية. وهكذا تبين للعلماء أن الكون ليس آلياً أو محتوماً على الأقل بالنسبة لبعض الظواهر الفلكية والنووية. بعد هذه الكشوف أصبح من الواضح أن أى إنسان لا يستطيع إغفال مفهوم "الاحتمال" إذا ما أراد أن يفهم بنية العلم.

ومن هنا نعود فنقول : إنه لا وجود لحقائق علمية ثابتة. أو بعبارة أكثر وضوحاً. لا وجود لحقائق علمية تزعم لنفسها الحق فى أنها سوق تظل محتفظة بصحتها إلى الأبد. قد توجد نظريات علمية ثبتت صحتها عن طريق كل الشواهد التى ظهرت حتى الآن ، أو ثبتت صحتها عن طريق التدليل على بطلان كل القوانين والنظريات المناقضة أو المنافسة لها. ولكن مهما تعددت الشواهد المؤيدة فإن ظهور حالة أو ملاحظة واحدة تتعارض مع هذه النظرية كفيل بهدم النظرية وتقويضها حتى وإن كانت قد شهدت بصوابها ملايين الشواهد.

الخرافة والعلم.. والعقل العربى (*)

سنوات قليلة ويطل علينا القرن الحادى والعشرين. وإذا كانت الثورة العلمية التى حدثت فى القرن الحالى قد حققت للبشرية تقدماً وتفوّقاً أكثر مما تحقق طوال القرون السابقة جميعها ، إذا كان ذلك كذلك ، فلنا أن نتخيل ما سوف يحققه العلم فى القرن القادم. إن كل يوم ، بل كل لحظة يأتى العلم بجديد ، ومن ثمَّ فإن المرء قد يعجز عن تخيل ما سوف يحققه العلم للبشرية- إذا قُدِرَ لها الاستمرار فى البقاء - بعد عدة قرون من الآن.

إنه لم يعد ثمَّة شك فى أن العلم أصبح قوة هائلة ومؤثرة فى حياتنا اليومية. وقد تقدمت بالعلم دول وشعوب وصلت إلى أعلى مستوى حضارى. وتقاعست دول أخرى عن الأخذ بأسباب العلم فتخلفت عن ركب الحضارة ، ونحن ننتمى إلى الفئة الأخيرة ، إذ نجد - فى وطننا العربى - من يُحَرِّم على المرأة أن تقود سيارتها بنفسها بحجة أن هذا يتنافى مع مظهر المرأة المسلمة !

كما نجد من يبحث فى مسألة ما إذا كان يحق لطالبات كليات الطب أن ينظرن - أثناء التشريح - إلى الجثة العارية للرجل أم لا !!

والواقع أنه لابد لأى شعب يريد اليوم أن يجد مكاناً على خريطة العالَم المعاصر أن يحترم أسلوب التفكير العلمى ويأخذ به ، وإذا أمعنا النظر فسنجد أن العلم هو أولاً وقبل كل شىء منهج فى التفكير قبل أن يكون معامل وأنابيب وأجهزة ، فالإنسان العادى عندما يفكر فى البحث العلمى يتخيل مختبراً يحتوى على كمية كبيرة من الأنابيب الزجاجية المعقدة وعلى كثير من الأجهزة الفنية

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ٢٣ / ٤ / ١٩٩٨.

الغامضة ، كما أنه عادةً ما يتم تخيل الرجل العالِم وهو يقف بمعطفه الأبيض وسط المختبر ومعه (كما يجئ فى أفلام السينما الأمريكية) مساعدة شقراء جميلة ، ولكننا إذا حذفنا من هذه الصورة المعدات الفنية والمعطف الأبيض والمساعدة الحسناء فلن يتبقى إلا الرجل والتجربة.

ففى الإنسان والتجربة نجد مفتاح المنهج العلمى ، وإذا كنا ننظر إلى العلم بوصفه منهجاً فإننا ننظر إليه على هذا النحو بغض النظر عن الموضوعات التى ندرسها بذلك المنهج. فليس العلم وقفاً على نوع الحقائق التى يبحثها العلماء ، لأن الحقائق التى يبحثونها مختلفة ، ورغم اختلاف موضوعاتهم فنحن نطلق عليهم جميعاً لفظ "علماء" ، والذى جعلهم يستحقون هذا الوصف هو منهجهم الذى اعتمدوا عليه فى البحث لا مادتهم التى يبحثونها .

وعلى ذلك يمكننا القول إن العلم هو طريقة فى النظر إلى الأمور تعتمد أساساً على العقل والبرهان المقنع – بالتجربة والدليل – وهى طريقة يمكن أن تتوافر لدى شخص لم يكتسب تدريباً خاصاً فى أى فرع بعينه من فروع العلم ، كما يمكن أن يفتقر إليها أشخاص توافر لهم من المعارف العلمية حظ كبير ، واعترف بهم المجتمع بشهاداته الرسمية ، ومنهم من وصل إلى منصب الأستاذية فى الجامعة ، ومع ذلك نراهم يدافعون بشدة عن الكثير من الخرافات ، رغم أنهم داخل تخصصهم يتبعون منهجاً علمياً دقيقاً وحاسماً ، لا يقل دقة وحسماً عن المنهج الذى يتبعه أقرانهم من أساتذة جامعات أمريكا وأوروبا.

نخلص من ذلك إلى القول بأن التفكير العلمى شىء وتكريس المعلومات شىء آخر ، ولكى نميز بين إنسان يفكر بطريقة علمية وآخر يعتمد فى تفكيره على الخرافات لابد لنا من أن نحدد ما نقصده بالخرافة. إن الخرافة تختلف عن

العلم ، لأن الخرافة تعتمد على رابطة عرضية بين شيئين ، فإذا زارنا شخص ما نعتقد أنه من النوع "الحسود" ثم حدثت لنا مصيبة أثناء أو بعد زيارته لنا ، فإننا غالباً ما نربط بين زيارته لنا وما أصابنا من كوارث ، ونتوهم – خطأً – أن الرابطة بينهما رابطة دائمة وضرورية على الرغم من أنه لا صلة بين هاتين الظاهرتين ، قد يكون اقتران وقوعهما قد حدث – بمحض المصادفة – مرة أو مرتين أو أكثر ، ولكن هذا لا يعنى أن نربط بينهما ربطاً دائماً. ولتوضيح معنى الرابطة العرضية نأخذ المثال الآتى :

لنفترض أنك هممت بتشغيل جهاز التلفزيون فى منزلك فسمعت بمجرد ضغط إصبعك على مفتاح التشغيل صوت انفجار شديد ارتجت له جنبات المنزل ، ولنفترض أن هناك معسكراً أقيم حديثاً على مقربة من منزلك يقوم أفراده بإجراء تجارب على أنواع معينة من المتفجرات وأنت لا تعلم شيئاً عن هذا المعسكر ، ولا تعرف أصلاً أنه موجود ، ولكن يتصادف فى كل مرة تحاول فيها تشغيل جهاز التلفزيون أنه بمجرد أن يضغط إصبعك مفتاح التشغيل ، تسمع صوت انفجار شديد ترتج له جنبات المنزل ، ولنفترض أن هذا تكرر حدوثه أكثر من مرة على فترات متقاربة أو متباعدة. مما لا شك فيه أنه سوف تأتى عليك لحظة ترتجف فيها رعباً من مجرد التفكير فى تشغيل جهاز التلفزيون ، لأنك سوف تعتقد اعتقاداً راسخاً أن ضغط إصبعك على مفتاح تشغيل جهاز التلفزيون هو سبب أو علة حدوث الانفجار، ومهما حاول المرء اقناعك بأن العلاقة بين تشغيل جهاز التلفزيون وسماع صوت الانفجار هى علاقة عرضية – أى نشأت عن طريق الصدفة البحتة – فإنك لن تقبل هذا الرأى ، وستظل متشبثاً باعتقادك أن هناك علاقة ضرورية ودائمة بين تشغيل جهاز التلفزيون وسماع صوت الإنفجار رغم خطأ هذا الاعتقاد وابتعاده عن الحقيقة والواقع.

هذا المثال يوضح طبيعة الرابطة العرضية التى تستند إليها معظم الخرافات ، فالخرافة تستند – كما سبق أن ذكرنا – إلى علاقة وهمية بين شيئين كالتشاؤم مثلاً من رؤية قطة سوداء ، أو سماع نعيق الغراب عند السفر. فى مثل هذه الحالات يتوهم صاحب المعرفة الخرافية أن هناك رابطة دائمة بين نعيق الغراب أو رؤية القط الأسود وبين حدوث المصائب والكوارث. مع أنها فى حقيقة الأمر رابطة عرضية قد تكون حدثت مرة أو مرتين فظن أنها رابطة دائمة ، هذه ومثيلاتها علاقة وهمية خرافية يحارب العلم التسليم بها لأنها لا تحتوى على شرط العلاقة السببية الثابتة التى ينزع العلم إلى الكشف عنها. والعلاقة السببية الثابتة تخضع لشرطين :

- الشرط الأول : أن يشهد بصدقها الواقع .
- الشرط الثانى: أن يكون وقوعها مطرداً بحيث لا يحتمل شذوذاً أو استثناءً.

وتوضيحاً لذلك نقول : إنه إذا حدث أن سمع إنسان نعيق الغراب ولم يلحقه – ولو مرة واحدة – أى أذى ، كان ذلك دليلاً مقنعاً فى نظر العلم على خطأ الاعتقاد بأن نعيق الغراب هو سبب نزول الكوارث ، حتى ولو ثبت أن كثيرين قد لاحظوا أنه كلما سمعوا هذا النعيق أصابهم الأذى.

ولعل هذا يُذَكِرنا بالمثال الرائع الذى ساقه "فرانسيس بيكون" فى معرض حديثه عن الأوهام التى تمتلئ بها رؤوس البشر ، والتى يسميها "أوهام الجنس" ، فى هذا المثال يروى بيكون قصة رجل كان ينكر أثر النذور فى استرضاء الآلهة ، فعُرِضَت عليه صور أولئك الذين وفوا نذورهم بعد نجاتهم من خطر الغرق إثر تحطم سفنهم ، عُرِضَت عليه تلك الصور المعلقة على جدار معبد ثم أُحْرِج بالسؤال الآتى : ألا تعتقد بعد ذلك فى حكمة الآلهة؟ فسأل بدوره قائلاً

: لكن أين أجد صور أولئك الذين نذروا النذور لنجاتهم ومع ذلك هلكوا ؟!

إن القاعدة العلمية تقول إن مثالاً واحداً يتعارض مع قاعدة عامة كفيل بهدم القاعدة وتقويضها ولو شهدت بصوابها مئات الشواهد .

obeikan.com

الثقافة ومجتمع الصراصير (*)

إن الثقافة السائدة فى مجتمع ما هى إلا انعكاس صادق للقيم السائدة فى ذلك المجتمع . إذا سادت فيه قيم رفيعة ارتفعت الثقافة وازدهرت . وإذا طغت قيم هابطة هبطت الثقافة واختفت . وعلى ذلك يتضح أن الثقافة ليست مسئولية فرد بعينه ، أو جهاز من أجهزة الدولة ، أو تنظيم من التنظيمات . الثقافة نبض الأمة ، قد ينتظم هذا النبض ويقوى ، وقد يضطرب ويخفت . يتوقف هذا كله على القلب ، والقلب هنا هو البناء القيمى للأمة .

وكى يبقى وجه مصر الثقافى زاهياً مشرقاً علينا أن نقوم بتحليل القيم السائدة فى مجتمعنا ، فنبقى على القيم الرفيعة ، ونقضى على القيم الوضيعة. ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن "الدين" قيمة رفيعة يجب أن نحرص عليها ونتمسك بها . فنحن بطبيعتنا وتاريخنا شعب متدين ، يسرى الدين فى عروقه مسرى الدم ، ولكن فى المقابل نجد بعض القيم الوضيعة قد تسربت إلى مجتمعنا . وتغلغلت فيه كالوباء ، على قمة هذه القيم الهابطة – إن كان للهبوط قمة – تتربع "الأنانية" . وتتمثل الأنانية فى العبارة البسيطة القائلة "أنا ومن بعدى الطوفان" أو "أنا وبأى ثمن" أو "أنا وأياً كانت الوسيلة". إن هذه الأنانية قد دبت فى أوصال مجتمعنا فأصابته بالضعف والخوار .

وانطلاقاً من هذه القيمة – قيمة الأنانية – سلك رجال الفكر عندنا مسلك المجتمع كله "مجتمع الصراصير" كما يسميه "توفيق الحكيم" دون قصد الإهانة

(*) نُشِرَ هذا المقال بجريدة "الوطن" الكويتية ، فى ٢٩ / ٥ / ١٩٩٨ تحت عنوان "الثقافة وأنانية رجال الفكر".

أو السخرية:

"فهو مجتمع مختلف عن مجتمع النمل ، فالنملة عندما تعثر على قطعة سكر تجدها وقد اجتمعت حولها جماعة من النمل تتعاون على حملها ، أما مجتمع الصراصير فهو مثل مجتمعنا اليوم قلما تجد مجموعة من صرصار تحمل فكرة وتعمقها وتفيد بها . لأن كل صرصار مشغول بنفسه فقط".

ولهذا – كما يقول توفيق الحكيم :

"لا يوجد بناء فكرى أو فلسفى أو أدبى يقوم شامخاً متكاملاً ، وإنما الموجود أفراد ، كل فرد مشغول بفكرته يحملها وحده ولا يلتفت أو يهتم إلا بما يحمله هو . وهذا سر من أسرار تخلف مجتمع الصراصير".

ومن أسرار مجتمعنا أيضاً غياب بعض القيم الرفيعة ، كقيمتى "العقل" و "الحرية" ، إننا أحوج ما نكون إلى "العقل" كى ترقى حياتنا وتزدهر ثقافتنا. والعقل يعنى الفحص والتحليل ، وفى كلمة واحدة ، يعنى "النقد" فليس هناك من هو فوق النقد. فالنقد لا يعنى الاتهام والتطاول ، ولا الصياح والصراخ. إنما النقد هو الجهد العقلى والعملى لعدم تقبل الأفكار وأساليب الفعل والسلوك والظروف الاجتماعية والتاريخية تقبلاً أعمى . النقد يعنى أيضاً تحليل كل تراثنا الثقافى والاجتماعى والسياسى وفحص الأهداف العامة للعصر لتمييز الزائف من الحقيقى للخروج بنسيج ثقافى متميز ومتفرد غير منفصل عن تراثنا وغير مصطدم بعصرنا .

والقول بأن سيادة العقل فى الحضارة الغربية قد أدت إلى طغيان النزعات المادية ، وتصدع الجوانب الروحية. إن مثل هذا القول يحمل فى طياته رفضاً

لقيمة العقل ، ويستند هذا الرفض إلى الزعم بأننا إذا شرعنا فى إعلاء شأن العقل سنصل إلى ما وصلت إليه بعض المجتمعات الأوربية من انحلال وتفسخ وانهيار أخلاقى . ودحضاً لمثل هذا الزعم نقول "إن قيمنا الدينية وتقاليدنا الشرقية كفيلة بحمايتنا من هذا الخطر ، وإذا كانت الحضارة الغربية قد أخفقت فى تحقيق التوازن بين العقل والروح وقامت بتغليب العقل وحده وأهملت الجوانب الروحية ، فصارت حضارة عرجاء – إن صح هذا التعبير – فهذا لا يستلزم بالضرورة تحقير العقل واستبعاده ، وإلا وقعنا فى خطأ تغليب أحد الطرفين على حساب الطرف الآخر ، وسرنا فى طريقنا – نحن أيضاً – بخطوات عرجاء ، وإن اختلف موضع العرج ، إن مهمتنا الأساسية تتمثل فى تحقيق التوازن الذى فشلت فى تحقيقه الحضارة الغربية.

ولن يتحقق هذا التوازن إلا فى ظل الحرية ، والحرية تعنى إتاحة الفرصة كاملة للتعبير عن كل مكنونات الفكر وخلجات النفس . ففى غياب العقل يغيب الفكر ، وفى غياب الحرية يختنق الفن والفكر والإنسان جميعاً .

تجديد الفكر العربى(*)

كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حى فى عصرنا هذا، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحدة ؟

وفى صياغة أخرى : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد إلينا من الغرب الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا هويتنا العربية الإسلامية أو نفلت منها ؟ هذا هو السؤال المحورى الذى يدور حوله كتاب الدكتور زكى نجيب محمود "تجديد الفكر العربى".

يصف زكى نجيب هذا السؤال بقوله : "هو سؤال طرح نفسه على المفكر العربى منذ أوائل القرن الماضى وظفر منه بإجابات تتفاوت إيجازاً وإطناباً ، ووضوحاً وغموضاً ، وصواباً وخطأً. ومع ذلك فلم يكن من بين تلك الإجابات التى امتدت خلال قرن ونصف القرن ، إجابة نحس معها أنها تقطع الشك بيقين ، والحيرة باهتداء ، لا ، لم يظفر السؤال من المفكر العربى بعد بجواب يمكن أن يقال عنه إنه هو الجواب الذى يرسم أمام الناس طريق العمل ، إذ ما يزال الناس أمامه فى الحيرة نفسها التى كانوا يقفون بها أمامه عندما طرح نفسه عليهم لأول مرة فى بدايات القرن الماضى ، حتى ليتعذر علينا اليوم أن نقول عن الفكر العربى إنه قد أصبح ذا طابع يميزه".

غير أننا نود أن نشير إلى أن ما أثاره هذا السؤال من تفاوت فى الإجابات إنما هو علامة صحة ودليل حيوية ، وذلك من ناحيتين ، تتمثل الناحية الأولى فى أن طرح بعض الأسئلة قد يكون فى بعض الأحيان أهم من

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ١٩ / ٧ / ١٩٩٨.

الإجابة عنه ، والسؤال الذى طرحه زكى نجيب محمود ينتمى إلى هذا النوع ، فالإجابات مهما تعددت وتنوعت لا تقلل من أهمية الأسئلة الكبرى ، لأن مثل هذه الأسئلة لا تنفض ولا تتلاشى بظهور كثرة من الإجابات ، بل على العكس ، كلما كان السؤال كبيراً ازداد إلحاحاً وصقلاً وبروزاً بتنوع محاولات الإجابة عنه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الأمة التى تطرح مثل هذا السؤال ، إنما هى أمة حية تبحث عن ذاتها وتسعى إلى تحقيق هويتها.

إن مشكلتنا هى التخلف الحضارى ، هكذا رآها زكى نجيب محمود ، كما رأى أن لا سبيل أمامنا للنهوض سوى "أن نأخذ بجانب العلم ولواحقه ، فى صورته التقنية الجديدة ، على أن تظل لنا تلك الجوانب من ثقافتنا التى نراها ضرورية للإبقاء على هويتنا القومية والوطنية". من هذا المنطلق تظهر قضية الأصالة والمعاصرة ، تلك التى يقول عنها بحق زكى نجيب محمود "ربما جرت تلك العبارة (الأصالة والمعاصرة) على قلم قبل قلمى ولسان قبل لسانى ، ولكن اليقين المؤكد هو أن أحداً لم يبذل مثل ما بذلته من جهد لترسيخ هذه القاعدة".

إنه يريد بالأصالة ، تلك الجوانب الثقافية التى نبتت أساساً فى تربة الوطن ، وابتدعتها عقولنا نحن ومشاعرنا نحن ، وقرائحنا نحن ابتداعاً . ويريد بالمعاصرة أن نعاصر الحضارة القائمة معاصرة صحيحة بأن نشارك فى صنع هذه الحضارة ، وفى تجددها ، وتقدمها المستمرين "ومن هذا الأصيل وذلك المنقول المشتول يجب أن تُنْسَج حياتنا الجديدة لحمة وسدى".

التوفيق بين الأصالة والمعاصرة هو ما تختلج به نفوسنا نحن أبناء الأمة العربية اليوم ، وننتظر صاحب الفكر الفلسفى الأصيل النافذ ، ليغوص إلى أعماقنا الثقافية ، فيستخرج لنا الصيغة المنشودة التى نقرأها فنجد أنفسنا

منعكسة فيها . وذلك هو ما حاوله الإمام محمد عبده ، وما حاوله من بعده كل أعلام الفكر فى بلادنا ، كل بطريقته الخاصة ، فحين حاول "محمد عبده" وضع تراثنا الدينى فى ضوء العصر الراهن ، فإنما أراد أن يلتمس طريقة إلى هذا التوفيق الذى نبتغيه ، وحينما حاول "العقاد" أن يدافع عن الإسلام بدحض ما يقوله عنه خصومه ، مستخدماً فى ذلك ثقافته الأوروبية وثقافته العربية ممتزجتين فى مركب واحد ، فإنما أراد أن يجمع بين الثقافتين على صعيد مشترك ، وحين حاول "طه حسين" أن ينقد أدب العرب الأقدمين على ضوء الفكر الحديث فقد أراد بدوره أن يصنع الصنيع نفسه ، وعندما كتب "توفيق الحكيم" عدداً كبيراً من مسرحياته ، وحاول فيها أن يعانق بين الروح والمادة ، وبين الأزلى والحادث ، فقد أراد أن يصل بذلك إلى الغاية نفسها .

وهكذا تستطيع أن تتعقب أعلام الفكر فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، فتجد كل واحد منهم قد أراد بطريقته الخاصة أن يضفر ثقافة الغرب وثقافة التراث العربى فى جديلة واحدة .

obeikan.com

تربية الآباء قبل تربية الأبناء (*) (١-٢)

"فلنرب أنفسنا أولاً إذا أردنا أن نربى أبناءنا تربية جيدة". هذه العبارة الشرطية قد تثير فى ذهن القارئ خليطاً من علامات الاستفهام والتعجب نظراً لما يكتنفها من غموض ، لذا سوف أسعى فى هذين المقالين إلى توضيح ما أعنيه بها.

قليلون يمكنهم الاعتراف علانيةً – أو حتى بينهم وبين أنفسهم – بفشلهم فى تربية أبنائهم ، وهم يرجعون أسباب هذا الفشل ، فى أغلب الأحيان ، إلى عقوق الأبناء أو سوء طبعهم ، أو يرجعونه إلى ظروف خارجة عن إرادتهم وإرادة أبنائهم.

وهناك من يرجع سبب فساد الأبناء إلى تدليل الأم لهم ، أما الأم فقد ترى أن غياب الأب بسبب انشغاله بماله وأعماله هو الذى أدى إلى انحراف الأبناء. وهناك أسباب كثيرة وعديدة لهذه الظاهرة تخرج عن دائرة الحصر. ولكننا لن نجد أحداً يعترف صراحةً بأن السبب الرئيسى لفشله فى تربية أبنائه أنه هو نفسه لم يتلق تربية جيدة. كيف ننتظر تربية جيدة من إنسان هو نفسه لم يجد من يربيه التربية السليمة ؟! كيف ننتظر شيئاً من إنسان فاقد لهذا الشىء ؟! إن "عديم التربية" ليس فى وسعه أن يربى أحداً. وعبارة "عديم التربية" هذه تطلق على الشخص "الذى لم يجد من يوجهه توجيهاً تربوياً سليماً" ، وهى فى أحيان كثيرة تُسْتَخدم كنوع من التوبيخ أو السب أو الشتم ، وهى تعادل عبارة "قليل الأدب". غير أننى لن استخدمها هنا بهذا المعنى ، وإنما

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ٨ / ٦ / ١٩٩٨.

سوف استخدمها بمعنى خاص جداً. إننى سوف أشير بعبارة "عديم التربية" إلى افتقار المرء إلى التربية العلمية السليمة" ، فالتربية السليمة لابد أن تستند إلى أسس علمية ، وأن تهتدى بالمبادئ والأفكار التى وضعها المفكرون والعلماء من أجل رعاية صحة الأبناء النفسية والبدنية وتنشئتهم تنشئة تحقق طموحاتهم التى تتناسب مع إمكاناتهم الذهنية والعضلية، وتتوافق مع مجتمعاتهم وتخدمها وتنهض بها. وهذا يعنى أننى لا أقصد السب أو الشتم بهذه العبارة.

لقد تلقى البعض منا تربية عشوائية ربما بسبب أمية آبائنا أو ربما محدودية ثقافتهم ، وهناك أعذار أخرى كثيرة يمكننا أن نلتمسها لهم ، ولكن الأمر الذى لا يمكن قبوله أو تبريره هو موقفنا نحن الآن من أبنائنا ، إذ كان ينبغى علينا أن نفكر فى نمط التربية الذى سوف نتبعه مع أبنائنا قبل انجاب هؤلاء الأبناء ، فالمرء عندما يشرع فى الزواج يفكر فى أشياء كثيرة ، ويقوم بإعداد أشياء كثيرة (السكن ، الأثاث ، المكان الذى سيقضى فيه شهر العسل ... إلخ) ليس من بينها الطريقة التى سوف يربى بها أبناءه. وعندما يتزوج ويُرْزَق بأول مولود يفرح فرحاً بالغاً لأنه أصبح أباً، متصوراً أن مهمته كأب انتهت عند هذا الحد ، وأن رسالته قد اكتملت ، وكأن القدرة على الإنجاب كافية لأن تخلع عليه صفة الأبوة ، غافلاً عن أن الإنسان والحيوان يشتركان فى هذه القدرة ، وإن ما يميز الإنسان على الحيوان هو أن الإنسان يحتاج إلى تنشئة ورعاية اجتماعية ، أو بعبارة مختصرة يحتاج إلى "تربية".

إن تلقين بعض المبادئ الأخلاقية للطفل لا يكفى وحده لتنشئة هذا الطفل تنشئة سليمة ، وإنما المهم أن تتحول هذه المبادئ إلى سلوك. فإذا أخذنا أحد المبادئ الأخلاقية التى لا خلاف حولها ، وهو المبدأ القائل بأن "الكذب رذيلة" ، هذا المبدأ نلقنه جميعاً لأبنائنا ، ونتصور أن مهمتنا كآباء تنحصر فى عملية التلقين هذه ، وننسى أن الأطفال هم أجهزة رصد دقيقة وحساسة ،

فالطفل يرصد كل أقوالنا وأفعالنا ، والفرق بينه وبين أجهزة الرصد الآلية ، هو أنه لا يقتصر على الرصد وإنما يتأثر ويتشكل فى آن واحد. ولنتأمل – على ضوء ذلك – حالة الطفل الذى يوبخه والده وقد يضربه لأنه كذب عليه، وبعد دقائق قليلة يدق جرس التليفون ، فترد الأم على المتحدث ، فيخبرها أنه يريد محادثة الأب فيشير الأب إلى الأم – على مرأى ومسمع من الابن – بأن تبلغ المتحدث بأنه ليس موجوداً.

فالأب يكذب ، ويطلب من الأم أن تكذب على مرأى ومسمع من الطفل الذى عُوقِبَ منذ قليل بسبب الكذب. إن هذا لكفيل بإرباك الطفل إرباكاً شديداً. (وللحديث بقية) .

openkan.com

تربية الآباء قبل تربية الأبناء (*) (٢-٢)

أبناؤنا هم ثروتنا الحقيقية ، ومن ثمَّ فإن أعظم استثمار يمكن للأب أن يقوم به ، هو أن يحرص على تربية أبنائه تربية سليمة ، ومع ذلك نجد – للأسف الشديد – بعض الآباء ينشغلون عن أبنائهم بسبب انشغالهم بأعمالهم ، وإذا حاول أحد أن يلفت نظر هذا الأب أو ذاك إلى خطورة أن يطغى اهتمامه بعمله على مساهمته المباشرة الحميمة فى تربية أبنائه ، كانت الإجابة التى كثيراً ما تطرق آذاننا : "إننى أكد وأكدح ليل نهار من أجل من؟! أليس من أجل أبنائى ؟! إن هذا المال الذى أشقى فى الحصول عليه، أليس من أجل تأمين مستقبلهم ؟! إننى لن أخذ شيئاً معى.. كله لهم".

هذه هى الحجة التى يحتج بها بعض الآباء لتبرير حرصهم الشديد – ولا نقول تكالبهم – على جمع المال وانصرافهم عن رعاية أبنائهم ، وغاب عنهم أن الرعاية لا تقتصر على مجرد توفير المال لشراء ما يريده الأبناء من ضروريات وكماليات ، وإنما الرعاية الحقة هى معايشة الأبناء واحتضانهم ومتابعة نموهم النفسى والبدنى ، وإرشادهم وتوجيههم التوجيه الأمثل. هذا هو الاستثمار الحقيقى ، لأننا لو تركنا الملايين لابن منحرف فسوف يبددها هباءً ، أما إذا تركنا القليل لأبناء حسنت تربيتهم ، فإنهم سوف يحرصون على هذا القليل وتنميته ، وإنفاقه فيما يفيد وينفع .

أنانية بعض الآباء تجعلهم يتهافتون على جمع المال لا من أجل تأمين مستقبل الأبناء – كما يزعمون – بقدر ما هو تأمين لمستقبل الآباء أنفسهم!!

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ١٢ / ٦ / ١٩٩٨.

والدليل على ذلك أن بعض الآباء يملكون ثروات ضخمة ويقطرون فى الإنفاق على أبنائهم ، ولا يقدمون لهم إلا أقل القليل. وحتى إن كان الأب كريماً مغدقاً المال على أبنائه ، فإن واقع الحال يقول إن احتياج الابن إلى حنان ورعاية وإشراف الأب أكبر من احتياجه إلى أمواله.

إن هذه ليست دعوة للتكاسل أو التقاعس عن توفير احتياجات الأبناء وتأمين مستقبلهم ، بقدر ما هى محاولة لفت نظر الآباء إلى خطورة أن يجرفهم تيار الحياة بعيداً عن أبنائهم ، إنها محاولة لتحقيق التوازن بين احتياجات الأبناء المادية والمعنوية .

ومن المفاهيم التربوية الخاطئة أيضاً اعتقاد بعض الآباء بأن طاعة الأبناء لهم هى المعيار الأمثل للتربية السليمة. فمنذ المراحل الأولى من عمر الطفل تعمل الأسرة على ترسيخ مبدأ طاعة الأبناء للآباء ، دون الانتباه إلى الآثار السيئة المترتبة على سيادة هذا المبدأ ، لأن المرء حين يُجْبَر على الطاعة يفقد ذاتيته وتنمحى فرديته وتُطْمَس شخصيته ، ويصبح من السهل انقياده لغيره. لذلك يصف الدكتور فؤاد زكريا "الطاعة" بأنها "مرض" فيقول فى مقال له بعنوان "مرض عربى اسمه الطاعة" نشره فى مجلة العربى العدد ٣٣٢ – يوليو ١٩٨٦:

"... يعمل تراث شعبى كامل على ترسيخ فكرة الطاعة بين الأبناء والآباء ، وكأنها هى النموذج الأعلى للسلوك الأسرى المثالى ، وحين يتكرر هذا النموذج عبر عشرات الأجيال ، تكون النتيجة الطبيعية هى جمود المجتمع بأكمله وانعدام التجديد فيه".

ويؤكد د. فؤاد زكريا أن التمرد هو قيمة أيضاً لذلك يقول :

"إن أعظم إنجازات الإنسان لم تتحقق إلا على أيدى أولئك الذين رفضوا

أن يكونوا "مطيعين" : فالمصلحون الذين غيروا مجرى التاريخ لم يطيعوا ما تمليه عليهم أوضاع مجتمعاتهم ، وأصحاب الكشوف العلمية الكبرى لم يطيعوا الآراء السائدة عن العلم فى عصورهم ، والفنانون العظام لم يطيعوا القواعد التقليدية التى كان يسير عليها أسلافهم. وهكذا فإن كل شىء عظيم أنجزته البشرية كان مقترناً بقدر من التمرد ، ومن الخروج على مبدأ الطاعة...".

إذا كان الدكتور فؤاد زكريا قد أكد أن "التمرد" قيمة ، فإننا ننظر إلى "الحوار" كقيمة يمكنها أن تحل محل مبدأ الطاعة ، لذلك علينا ألا نجبر أبناءنا على طاعتنا ، بل ينبغى أن ينصب حرصنا على إقامة حوار بيننا وبينهم ، وأن تتسع صدورنا لهذا الحوار حتى تترسخ قيمة الحوار البنَّاء فى وجدان الآباء والأبناء على حد سواء .

obeikan.com

عين الحسود (*)

الحسد هو تمنى زوال نعمة الله من يد الغير . والإنسان الذى يملأ الحسد قلبه إنسان شرير ، لا يتمنى خيراً للناس ، بل يحترق حقداً وتعتصره الحسرة إذا ما رأى الناس تنعم بالسعادة ، لذلك يأمرنا المولى جل شأنه أن نستعيذ به من الحسَّاد، يقول تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. (الآية ٥ من سورة الفلق).

والواقع أن الحاسد لا يحسد من هو أقل منه منزلةً ، لأن الإنسان الصحيح البدن لا يحسد العليل ، والغنى لا يحسد الفقير ، والعالِم لا يحسد الجاهل . بل يحدث العكس أحياناً .

من الواضح أن الحسد هو ضعف إيمان وعدم رضا بقضاء الله وقدره. ونحن مطالبون بأن نرضى بقضاء الله ، كما أننا مطالبون بأن نحمده على كل ما يحدث لنا ، ونشكره على كل نعمة نملكها أو يملكها غيرنا ، وألا نحزن على نعمة فاتتا الحصول عليها ، لأنه قد يكون فى حصولنا عليها شر أبعده الله عنا ، يقول سبحانه وتعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الآية ٢١٦ من سورة البقرة).

هذا ما يأمرنا به القرآن الكريم . . ومع ذلك نجد أغلب الناس فى بلادنا – منهم مثقفون وعلماء وحملة دكتوراه – يؤمنون إيماناً راسخاً "بالعين" وأنها "تفلق الحجر"، ويلجأون إلى التمائم والتعاويذ والأحجبة ، كما يلجأون إلى

(*) جريدة "السياسة" الكويتية ، فى ١٦ / ٢ / ١٩٩٦.

أشياء أخرى عجيبة وغريبة كالاستعانة بخرزة زرقاء أو حدوة حصان أو إطلاق البخور أو غير ذلك ، اعتقاداً منهم بأن مثل هذه الأشياء تحميهم من "عين الحسود" !!

وإذا ما حاولت مناقشة أحدهم ، بادرك بالقول : "الحسد مذكور فى القرآن". إن أمثال هؤلاء ينقصهم الفهم الصحيح للآية الكريمة ، فالمولى تبارك وتعالى يأمرنا أن نستعيذ به من شر الحسَّاد ، لأن الحاسد لا يتورع عن القيام بعمل إيجابى يضر بالمحسود ويؤذيه ؛ كأن يطلق عليه لسانه بالنقد والتجريح وتشويه السمعة ، أو يمشى بالوقيعة بينه وبين الناس ، أو يعتدى عليه مباشرةً أو عن طريق وسطاء . كل هذه الشرور والأضرار إنما تصدر عن الحاسد بحكم طبيعته غير السوية ونفسيته المريضة ، لذلك ينبغى أن نستعيذ بالله من شر هؤلاء الحسَّاد .

غير أن القرآن الكريم لم يذكر أن هناك أشعة غير مرئية تنبعث من "عين الحسود" يمكنها أن تصيب المحسود – سواء أكان شيئاً أم شخصاً – بالأذى الشديد ، كما أن العلم لم يقل أن عين الحاسد لها تركيبة خاصة ووظيفة مختلفة عن بقية العيون البشرية الأخرى . .

وفضلاً عن ذلك ، فإن القول بأن الحاسد لديه قدرة خاصة على فعل كذا وكذا بعباد الله هو نوع من الشرك يحذرنا الدين منه ، لأن الفعل فى الكون كله لله وحده ، فلا يوجد فعّال لما يريد سوى الحق جل جلاله ، كما أن الاستعانة بالتمائم لحمايتنا من "عين الحسود" ، هى نوع من الوثنية جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الاعتقاد بأن عين الحاسد هى العلة أو السبب فيما يصيبنا من أذى ، قد يصرفنا عن البحث عن العلل والأسباب الحقيقية لما نعانى منه ؛ فإذا اعتقدت الأم أن المرض

الذى أصاب طفلها سببه الحسد ، فإن هذا الاعتقاد سوف يصرفها عن الذهاب إلى الطبيب ويدفعها إلى الاستعانة بأشياء عقيمة كالتمائم والتعاويذ والأحجبة .

إن القول بأن عين الحاسد تصيب المحسود بالأذى هو قول ينفيه واقع الحياة اليومية ، إذ إن الحياة تزخر بالمبدعين البارزين من البشر فى مجالات النشاط الإنسانى المختلفة . ولا شك أن كل واحد من هؤلاء هو عرضة للحسد من قِبَل بعض الفاشلين العاجزين وما أكثرهم ، فلو أن العين تفلق الحجر ، كما يعتقد أغلب الناس . لكان وجود هؤلاء الفاشلين كفيلاً بالقضاء على كل المبدعين الناجحين !! وهذا ما لم يحدث لحسن الحظ . إن وجود الناجحين والمتفوقين فى كافة مجالات الحياة دليل قاطع على بطلان الاعتقاد السائد بين الناس فى وجود الحسد .

بقى أن نقول إنه لو أن "عين الحسود" لها هذا التأثير المزعوم لكان الأجدر بنا الاستعانة بتأثيرها من أجل خدمة بعض الأهداف الاجتماعية والوطنية ، فمثلاً كان يمكننا بدلاً من إنفاق المال وبذل الجهد لرفع مستوى أداء فريقنا القومى لكرة القدم ، أقول كان يمكننا – بدلاً من هذا – الاكتفاء بالإعلان من خلال الصحف وشاشات التلفزيون عن حاجتنا إلى عدد من الحاسدين المشهود لهم بنفاذ حسدهم !! وعند قيام أية مباراة لنا مع فريق منافس ، يجلس هؤلاء الحاسدون بالقرب من الملعب ، ويصوبون عيونهم على كل لاعب متميز من لاعبى الفريق الخصم حتى إذا ما تجاسر واقترب من مرمانا يصاب بشلل فجائى أو ذبحة صدرية تقضى عليه فى الحال . وبذلك نفوز فى كل المسابقات دون تعب أو عناء !!

فى يقينى أن الفهم الصحيح للآيات القرآنية الكريمة هو سبيلنا إلى الرقى

والازدهار ، لأن الإسلام هو دين العقل والحرية ، ومن دون العقل والحرية لن يتحقق رقى أو ازدهار .

obeikan.com

اتفاقية . . "الجشع المتبادل" (*)

إننا كأفراد فى مجتمع نجحنا فى توقيع اتفاقية غير معلنة يمكننا أن نطلق عليها اسم "اتفاقية الجشع المتبادل" ، والواقع أن غالبية الناس فى مجتمعنا يقومون بتنفيذ بنود هذه الاتفاقية بهمة وإصرار ، رغم سخطهم المعلن عن سوء الحال واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

الكل يعانى من ارتفاع الأسعار ، ولا شك أن هناك أزمة اقتصادية أدت إلى هذا الارتفاع فى الأسعار ، ولكنى أعتقد أن الأزمة الاقتصادية ليست المتهم الوحيد فى هذه القضية ، إذ إن هناك متهماً آخر لا يقل خطورة وهو "الجشع" ، وهنا يبرز سؤال : جشع مَنْ ؟!

للإجابة عن هذا السؤال لابد من تناول مثال من واقع حياتنا اليومية كى نوضح من خلاله عدة أمور :

الأمر الأول : هو توضيح ما نعنيه "بالجشع المتبادل".

الأمر الثانى : هو تحديد من يقوم بهذا "الجشع".

أما الأمر الثالث : فهو بيان الآثار المدمرة للجشع .

ولنتحدث عن سلعة واحدة ولتكن "اللحم" ، فمن المعلوم أن الجميع يعانى من ارتفاع سعر هذه السلعة . صحيح أن الأزمة الاقتصادية هى أحد أسباب ارتفاع سعر اللحم ، ولكن يظل من الصحيح أيضاً أن هناك سبباً أهم لارتفاع سعر هذه السلعة ، وهو "جشع" الجزار ، وإذا نظرنا إلى مستهلكى "اللحم" سنجد

(*) جريدة "الأهرام المسائى" ، فى ٢٤ / ١١ / ١٩٩١.

أنهم فئة كبيرة : منهم سائق التاكسى والمدرس والميكانيكى والطبيب والفاكهى والسباك . . وغيرهم . إن هذه الفئات المختلفة عندما تستشعر "جشع" الجزار تصاب هى الأخرى بهذا الداء ، فنجد كل فئة من هذه الفئات تمارس الجشع على بقية الفئات الأخرى . إذ يحاول سائق التاكسى الحصول من الراكب على أكثر من حقه ، كما يقوم المدرس بإعطاء دروس خصوصية ، والطبيب والميكانيكى والسباك يغالى كل واحد منهم فى أجره .. وهكذا .

إذا تأملنا هذا الوضع نجد أن هناك جشعاً متبادلاً ، فالجزار وسائق التاكسى والطبيب والسباك يحاول كل منهم "بالجشع" الحصول على كل ما فى جيب المدرس من نقود !! ماذا يفعل المدرس فى هذه الحالة ؟ إنه يحاول عن طريق "الجشع" أيضاً أن يسترد ما فقده من مال بالحصول على أكثر مما يستحق ، فيقوم بإعطاء دروس خصوصية للتلاميذ والطلاب ، وقد يكون من بينهم ابن الجزار أو سائق التاكسى أو السباك أو الطبيب . وما يصدق على المدرس يصدق على بقية الفئات . كل إنسان فى مجتمعنا يحاول أن يدافع عن نفسه ضد الجشع ، وذلك باسترداد ما فقده من مال ، فيجد فى نهاية الأمر أنه هو نفسه يقوم بفعل "الجشع" . الكل جناة وضحايا، غير أن هناك فئة صغار الموظفين لا يستطيعون ممارسة الجشع حتى لو شاءوا ، وذلك لأنهم لا يملكون أية وسيلة تمكنهم من ممارسة الجشع ، وهؤلاء هم المعذبون فى الأرض ، إلا من استطاع منهم – من خلال التعامل مع الجمهور – الحصول على بعض الرشاوى. ولا شك أن "الجشع" أنواع ، ويتحدد حجم الجشع من حيث الضخامة والضآلة وفقاً لدرجة نفوذ صاحبه وما يملكه من مال وسلطة.

ولو أردنا معرفة خطورة هذا الوضع المؤلم ، فلنتخيل إن كل فرد فى المجتمع تخلى عن جشعه ، وامتلأ قلبه بالرحمة نحو غيره من أبناء وطنه. من المؤكد أن جزءاً كبيراً من العبء الذى يثقل كاهل الجميع سوف يزول ، ومع

هذا يحق للمرء أن يتساءل : إذا بدأت أنا بالتخلى عن الجشع، فمن يضمن لى أن بقية أفراد المجتمع سوف يلتزمون هم أيضاً بالتخلى عن الجشع ؟!

فى واقع الأمر إن مثل هذا التساؤل يكشف عن عدم جدوى الحل الأخلاقى لمشكلة الجشع الاجتماعى التى نعانى منها ، ومن ثمّ يتحتم أن يتدخل طرف ثالث لديه الصلاحيات والقدرات التى تمكنه من البطش بكل جَشِع مستغل . لابد من تدخل ذلك الطرف الثالث كى يحطم تلك "الحلقة الجهنمية" التى ندور بداخلها جميعاً .. نصرخ .. ونصرخ ، نعرف أننا ضحاياها وننسى أنها من صنعنا . إن الطرف الذى يمكنه تحطيم دائرة الجشع المتبادل هو الحكومة .. الحل إذن فى يد الحكومة ، فهل يا ترى سيطول انتظارنا لهذا الحل ؟!

obeikan.com

زيادة الإنتاج .. كيف ولماذا ؟ (*)

زيادة الإنتاج مطلب الجميع ، فعن طريقها يمكننا التغلب على العديد من المشكلات التى نعانى منها ، ولا شك أن هناك معوقات كثيرة تحول دون تحقيق هذا الهدف النبيل ، منها ما يتعلق بسوء الإدارة ، ومنها ما يتعلق بعدم توافر النقد الأجنبى اللازم لتمويل المشاريع الإنتاجية. وإذا واصلنا رصد هذه المعوقات فسوف تطول القائمة ، ولكننى سوف اقتصر على تناول جانب واحد منها ، وهو الجانب المتعلق بالإنسان المصرى بوصفه أحد العناصر التى تدخل ضمن مكونات العملية الإنتاجية.

من المسلم به أن الإنسان هو العنصر الأهم فى أية عملية إنتاجية. صحيح أن هناك عوامل أخرى لابد من توافرها لنجاح عملية الإنتاج ، وعلى الرغم من الأهمية البالغة لهذه العوامل فإن غياب العنصر البشرى كفيل بإضعاف – إن لم يكن هدم – أى اتجاه نحو زيادة الإنتاج ، وهذا هو الواقع المؤلم الذى نعانى منه فى مصر .

غياب العنصر البشرى لا نعنى به على الإطلاق قلة الأيدى العاملة ، أو نقص أصحاب الخبرة ، وإنما نعنى به شيئاً آخر لا يقل خطورة ، وهو ما سيتضح من السطور التالية .

إن الإنسان المصرى لا تنقصه العزيمة والقدرة ، كما لا تنقصه المهارة والخبرة فى إنجاز ما يُسْنَد إليه من أعمال ، مهما عظم شأن هذه الأعمال ؛ يشهد على ذلك ما يحققه هذا الإنسان من نجاح خارج حدود وطنه، فهو يبذل

(*)جريدة "الأهرام المسائى" ، فى ١٩ / ٢ / ١٩٩٢.

كل ما فى وسعه لتحقيق أقصى قدر من الإنجاز عندما يلتحق بعمل بإحدى البلاد العربية أو غيرها من بلاد العالَم.

وإذا كان هذا هو حال الإنسان المصرى خارج وطنه . فلابد أن نتوقع من هذا الإنسان – المعروف بحبه الشديد وانتمائه العميق لبلده – أن يقدم جهداً أكبر فى مجالات العمل داخل وطنه . ولكن واقع الحال يقول عكس ذلك ، إذ نجد التكاسل والإسراف فى تبديد الوقت والعزوف عن العمل ، هى سمات عدد كبير من المصريين .

كان الأجدر بأولئك الذين يعزفون ليل نهار على نغمة المطالبة بزيادة الإنتاج ، أن ينتبهوا إلى هذه الظاهرة الغريبة فيقفوا أمامها بالدراسة والتحليل. ويمكن صياغة هذه الظاهرة فى صورة سؤال ، وذلك على النحو الآتى :

"لماذا يتقاعس الإنسان المصرى عن بذل كل جهده من أجل زيادة الإنتاج؟"

إن أية دعوة إلى زيادة الإنتاج تحاول القفز من فوق هذا السؤال هى دعوة عقيمة لا معنى لها ، وهى أشبه بمضغ الهواء ، إن كل من يطالب الشعب المصرى بزيادة الإنتاج دون أن يحاول البحث عن إجابة حقيقية للسؤال السابق هو أشبه بمن يحاول أن يفتل من الرمال حبالاً .

إن ظاهرة تقاعس الإنسان المصرى عن بذل كل جهد من أجل زيادة الإنتاج إنما ترتبط بواقع الإنسان المصرى بكل أبعاده .. السياسية والاقتصادية والثقافية .. ومن ثَّم فإن الواجب يحتم مساهمة كل أصحاب العقول المستنيرة فى دراسة وتحليل الواقع المصرى ، وذلك من أجل معرفة عوامل الإحباط التى حالت بين الإنسان فى بلادنا وبين العمل على زيادة الإنتاج .

ولا جدال فى أن الشعور بالإحباط هو شعور مدمر للقدرة على الإنتاج

فى أى مجال من مجالات العمل ، وهناك أسباب كثيرة تؤدى إلى الشعور بالإحباط ، منها "إنصاف القوى وقهر الضعيف" . . إن الجاه والمال أو الاثنين معاً هما مصدر قوة الإنسان ، أما مصدرا ضعفه فهما الفقر وتواضع المكانة الاجتماعية أو الاثنان معاً .

ولا شك أن النتيجة الطبيعية لأية مواجهة بين القوى والضعيف هى لصالح القوى ، وعلى ذلك فإن وقوف الحكومة موقف الحياد تجاه الصراع بين الأقوياء والضعفاء ، إنما يتم تفسيره على أنه "إنصاف للقوى وقهر للضعيف" ، ومن هنا يأتى الشعور بالإحباط ، فهل يُرْجَى ممن يتملكه مثل هذا الشعر أن يعمل على زيادة الإنتاج ؟!

ومما يرتبط أيضاً بظاهرة "إنصاف القوى وقهر الضعيف" ما يشعر به الإنسان المصرى من إحباط نتيجة لعدم ردع بعض الفاسدين الأقوياء ردعاً كافياً يتناسب مع ما يرتكبونه من آثام ، فى حين يتم محاسبة العامل البسيط محاسبة عسيرة ، وينال عقوبة رادعة إذا ما أخطأ عن قصد أو دون قصد . هنا ينتاب الغالبية الكادحة إحساس بالغربة ، ويشعرون بأن البلد ليست ملكاً لهم ، بل هى ملك الأقوياء وحدهم . فهل يُرْجَى ممن يتملكهم مثل هذا الشعور أن يعملوا على زيادة الإنتاج ؟!

ومما يتعلق بالنقطة السابقة أن الإنسان المصرى يشعر فى أحيان كثيرة أن ثمرة جهده وعرقه إنما تدخل فى نهاية الأمر فى جيب فئة من الأقوياء ، ولا يتبقى له سوى أقل القليل ، ولأنه يعتقد أن لا سبيل أمامه لقهر هذه الفئة ، بل يجدها تنمو ويستفحل أمرها يوماً بعد يوم ، فإنه يلجأ فى محاربته لها إلى ما يشبه "المقاومة السلبية" المتمثلة فى التقاعس عن العمل على زيادة الإنتاج . فلماذا ينتج وهو يعلم أنه لن يتمتع فى نهاية الأمر بثمرة عمله ؟!

إن ظاهرة "إنصاف القوى وقهر الضعيف" تلخصها الحكمة الشعبية التى يعبر عنها المثل الدارج "من له ظهر لا يُضْرَب على بطنه" .

فى الواقع أن التحليل السابق يكشف عن ضرورة إعادة ثقة الإنسان المصرى فى ذاته ، وذلك عن طريق تأكيد مبدأ إنه لا خير لقوى على ضعيف إلا بالعمل المثمر والمسلك الشريف ، وإن هذا البلد ملك لكل المصريين لا لأصحاب النفوذ والمال وحدهم . لابد من غرس هذه المبادئ فى النفوس ، لا عن طريق الخطب والعبارات الرنانة ، وإنما عن طريق القدوة الحسنة والفعل الحقيقى الملموس ، حينئذ يتبدد الشعور بالإحباط ، وتتحفز الهمم والعزائم للعمل والإنتاج.

obeikan.com

قانون إيكا (*)

عفواً إن كنت قد اقتبست عنوان أحد الأفلام السينمائية فجعلت منه عنواناً لمقالى ، إذ لم أجد عنواناً أنسب منه لهذا المقال ، على الرغم من عدم وجود صلة مباشرة بين موضوع الفيلم وموضوع المقال. ولكن يبقى أن هناك خللاً ما ينبغى أن نحرص جميعاً على معالجته.

لا جدال أن بعض القوانين قد صدرت أساساً من أجل وضع الضوابط التى تنظم علاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض. ونحن لدينا العديد من هذه القوانين التى لو طبقت لعم النظام والانضباط أرجاء الوطن ، ولكن من المؤسف أن مثل هذه النصوص القانونية لا يتم الالتفات إليها.

فالقانون يقيد الاعتداء على جسد الإنسان ، ولولا هذا القيد لما أمكن لأى مجتمع بشرى أن يستمر، لأن المجتمع سيفتقر فى هذه الحالة إلى أدنى درجة من الأمن الذى بدونه سيكون أى تفكير فى المستقبل عبثاً ، ومن هنا فإن كوابح من هذا النوع إنما تحقق دوراً مهماً فى ضمان حرية المجتمع.

وإذا كان الضرب أو التعذيب أو القتل هو أوضح صور الاعتداء على جسد الإنسان ، فإن هناك صوراً أخرى عديدة لهذا الاعتداء يُجَرِّمها القانون، وهى تحدث بشكل يومى على مرآى ومسمع من كل الأجهزة التنفيذية المنوط بها تطبيق القانون ، ومع هذا لا يعيرها أحد التفاتاً !!

لن أتحدث عن الغش التجارى فى السلع الغذائية ، أو عن تلوث مياه الشرب ، أو عن تلوث الهواء ، وكلها تمثل صور الاعتداء اليومى على جسد

(*) جريدة "الأهرام المسائى" ، فى ٥ / ١ / ١٩٩٢.

الإنسان المصرى ، وإنما سوف أكتفى بالحديث عن "الضوضاء" بوصفها ظاهرة يومية ملموسة يعانى منها الصغير والكبير والغنى والفقير ، فالأصوات المزعجة تحيط بنا من كل جانب. وفضلاً عن أنها تمثل اعتداء على الإنسان من حيث صحته وحريته ، فإنها تمثل أيضاً إعلاناً عن موت بعض القيم الرفيعة وميلاد بعض القيم الهابطة. فمن الصور المألوفة فى حياتنا أن نجد راكب السيارة عندما يرغب فى استدعاء أحد الأشخاص ، لا يصعد إليه ويطرق بابه ، وإنما يستعمل آلة التنبيه (الكلاكس) فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ، حتى ينتبه صاحبه إلى وجوده ويطل من النافذة أو الشرفة ، عندئذ فقط يكف عن استخدام هذه الآلة اللعينة.

إن كل هم هذا الشخص هو الوصول إلى هدفه من أقصر طريق ، حتى وإن كان أسوأ طريق ، ومن المؤكد أن هذا المبدأ الميكافيللى "الغاية تبرر الوسيلة" ، إنما يؤكد سيطرة القيم الهابطة على سلوك هذا الشخص ، لا فى هذا الموقف وحده وإنما فى سائر علاقاته الاجتماعية الأخرى .

ومبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" أصبح هو المبدأ السائد بين قطاع كبير من الناس ، ومادمنا نتحدث عن "الضوضاء" ، فلنتأمل مشهد الباعة المتجولين وهم يطوفون الشوارع ، إذا نراهم قد ابتدعوا وسيلة جديدة بالإعلان عن بضاعتهم ، وهذه الوسيلة هى استخدام مكبرات الصوت. ليس مهماً إيقاظ النيام أو إزعاج المرضى ، وإنما المهم الوصول إلى الهدف ، وهو الترويج للبضاعة وبيعها وتحقيق مكسب من وراء ذلك .

أما إذا تحدثنا عن الضوضاء الصادرة عن السيارات المنطلقة فى شوارعنا أو الصادرة عن مكبرات الصوت المستخدمة فى الأفراح والمآتم والجوامع ، أو المنبعثة من الورش والمقاهى وأجهزة الكاسيت ، إذا تحدثنا عن

كل هذا فسوف يطول بنا الحديث .

ومع هذا فإننى أود أن أرصد إحدى هذه الظواهر التى لا يمكن أن نجد لها مثيلاً فى أى بلد آخر من بلاد العالَم : ففى بلادنا ، رغم استعمال سائقى السيارات لآلات التنبيه على نطاق واسع ، نجد عدداً كبيراً من المشاة لا يعيرون الأصوات الصادرة عنها أى التفات ، يستعمل السائق آلة التنبيه كى يفسح له بعض المارة الطريق ، غير أنهم – رغم سماعهم صوت هذه الآلة – يواصلون سيرهم بهدوء وسكينة. معرقلين انطلاق حركة السيارة. ولا شك أن كل من قاد سيارة فى شوارع القاهرة صادفه موقف مشابه لهذا .

وقد يملأ الحنق والغيظ صدر بعض السائقين ، ومنهم من ينفد صبره فينطلق لسانه بالسب والشتم عندما يصادف مثل هذا الموقف ، ولكننا إذا أمعنا النظر أدركنا أن الناس قد اكتسبوا ما يشبه "المناعة" ضد الأصوات الصادرة عن آلات التنبيه بسبب اعتياد آذانهم على هذه الأصوات طوال ساعات اليوم .

إن السائقين أنفسهم قد اكتسبوا بدورهم نوعاً مماثلاً من هذه "المناعة" ضد الأصوات الصادرة عن عربات الشرطة والإسعاف والمطافئ ، ففى كل بلاد الدنيا يبادر السائق بإفساح الطريق لهذه العربات ، أما عندنا فالأمر مختلف ، إذ لا يعبأ السائقون بالأصوات الصادرة عن هذه العربات ، لأننا اعتدنا سماع آلات التنبيه الخاصة بعربات الشرطة والإسعاف والمطافئ تدوى فى الشوارع لا بسبب وجود حالة طارئة "عاجلة" ، وإنما لمجرد أن سائقها أو أحد أمناء الشرطة أو أحد الضباط ينتابه شعور بالتميز ، ويرغب فى أن يسبق بقية السيارات الأخرى ، فيُطْلِق آلة التنبيه الخاصة بهذا النوع من العربات ، وبتكرار هذا السلوك غير المسئول اكتسب السائقون "مناعة" ضد الأصوات

الصادرة عن عربات الشرطة والإسعاف والمطافئ. وترتب على هذا أنهم يتلكأون فى إفساح الطريق أمامها ، حتى وإن كانت متجهة حقاً إلى انقاذ إنسان. ومما ساهم فى ترسيخ هذا السلوك السلبى أن بعض أصحاب السيارات الخاصة (الملاكى) باتوا يستخدمون آلات تنبيه مماثلة للآلة المستخدمة فى عربات الشرطة !! فى واقع الأمر أن حديثنا قد انصب على ظاهرة انتشار الضوضاء لعدة أسباب :

أولاً : لأن الضوضاء تدخل ضمن التلوث السمعى الضار بصحة الإنسان. وهى تشكل خطراً على صحة الإنسان السليم ، فما بالنا بالمرضى والأطفال وكبار السن !! ومن ثم فهى تمثل اعتداء على صحة الإنسان وحريته.

ثانياً : لأنها تكشف عن مظاهر الفوضى والاضطراب وعدم انضباط الشارع المصرى.

ثالثاً : أما السبب الأخير وهو الأهم – لارتباطه بموضوع هذا المقال – إنما يتمثل فى أن انتشار الضوضاء ، رغم وجود نص قانونى يحرّم ذلك، إنما يكشف عن غياب سلطة الدولة عن بعض مجالات حياتنا. وهذا الغياب سواء أكان عن إهمال أو قصد إنما يُعَرِّض سلامة المجتمع ككل للخطر ، بخاصةٍ إذا امتد هذا الغياب إلى مجالات أخرى كثيرة. ذلك لأن الدولة تمثل الشعب كتنظيم قانونى، ومن ثمّ فإن ما يحدث فى الشارع المصرى من فوضى وعدم احترام للقانون وإهدار كرامة الإنسان ، إنما هو صورة مصغرة – ولكنها دقيقية – للحالة التى عليها مجتمعنا ككل.

إننا ننظر إلى القانون بوصفه أداة لتوجيه النشاط الإنسانى ووضع القيود

على هذا النشاط ، وقد تبدو هذه الوجهة من النظر متناقضة مع الدعوة إلى حرية الإنسان ، ولكننا نود أن نؤكد أن الحرية لا تعنى أن الإنسان يعيش فى جزيرة منعزلة فى حالة بدائية ، متحرراً من كل قيود. إن الإنسان لم يكن أبداً متوحشاً منعزلاً وحراً بهذا الشكل ، بل هو كائن اجتماعى يدخل فى علاقات كثيرة معقدة ومتشعبة مع غيره من أفراد مجتمعه ، ومن ثمَّ فإن الضوابط أو القيود لا تعنى اعتداء على حريته ، بل تمثل ضماناً لهذه الحرية.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، هو :

لماذا لا يتم تطبيق القانون الذى يقيد حرية استعمال مكبرات الصوت أو آلات التنبيه أو غيرها من الوسائل والأدوات المثيرة للضوضاء ؟! هل يا ترى يحتاج تطبيق مثل هذا القانون إلى عملة صعبة تعجز مواردنا الاقتصادية عن توفيرها ؟!

obeikan.com

لا تقل لى شيئاً ودعنى أرى (*)

قد يكون أمراً غير مألوف أن يتخذ الكاتب من إحدى العبارات المطولة عنواناً لمقاله ، إذ ينبغى – فى رأيى – أن يكون العنوان قصيراً بقدر الإمكان، على أن يكون – فى الوقت نفسه – واضحاً تمام الوضوح ، وموحياً بما يتضمنه الموضوع من جزئيات وتفاصيل .

ولا أخفى عن القارئ القول بأننى حاولت ، بعد أن فرغت من كتابة هذا المقال ، أن أضع له عنواناً مناسباً فاخترت العنوان الآتى : "كلام .. كلام .. كلام" ، فلم يرق لى ، فاخترت له هذا العنوان : "كلام فى كلام" ، ولكننى وجدته لا يختلف كثيراً عن سابقه ، ثم رأيت من المناسب أن أجعل عنوانه: "الكلمة .. والفعل" واستقر رأيى على ذلك ، غير أننى فى اللحظة الأخيرة قر قرارى على أن يكون عنوان المقال على النحو الذى هو عليه الآن .

فى يقينى أننا لو اتخذنا من هذه العبارة : "لا تقل لى شيئاً ودعنى أرى" دستوراً يحكم سلوكنا سواء على مستوى حياتنا العامة أو الخاصة ، فإن ذلك لكفيل بإعادة ثقتنا المفقودة فى الخطاب العربى المعاصر ، إذ إن الناس فى بلادنا قد سئمت الشعارات الرنانة والعبارات الجوفاء التى زخر بها الخطاب السياسى والإعلامى ، بسبب ما ألفنا طوال السنوات الماضية ، وعلى مدار نصف قرن أو أكثر ، أن يتم – كل عدة سنوات – الإعلان عن بداية مرحلة تاريخية جديدة ، وتُصاغ الشعارات المناسبة للتعبير عن تلك المرحلة ، وفى كل مرة نفرح بهذه الشعارات وتمتلئ نفوسنا حماساً وأملاً ، ونستبشر خيراً ، ظناً

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ١٤ / ٥ / ١٩٩٨.

بأننا مقبلون بالفعل على مرحلة جديدة تجعل حياتنا أكثر رقياً وازدهاراً ، ثم نكتشف بعد فترة من الزمن قد تقصر أو تطول ، أن ما كنا فيه أصبحنا فيه دون تغيير ، وأن شيئاً لم يتحقق ، وإذا ما تحقق شيء فإنه لا يتناسب على الاطلاق مع حجم الشعارات التى كانت مرفوعة . وبمرور الوقت يفتر الحماس وتخور القوى ويتلاشى الأمل ، وفجأة تطل علينا شعارات جديدة فى صياغتها ، معلنةً عن بدء مرحلة تاريخية جديدة فى طبيعتها ، ويبدأ الطبل والزمر مداعباً آمال الجماهير ، واعداً بتحقيق أمانى الأمة ، فيتجدد الأمل ويشتعل الحماس من جديد ، ثم نكتشف بعد فترة من الزمن ، قد تقصر أو تطول ، أن الشعارات الجديدة قد تمخضت عن نفس ما تمخضت عنه الشعارات السابقة .. عن لا شيء !!

وبتكرار هذه الشعارات وكثرتها فقدت معانيها ومصداقيتها ، ولم يعد للناس ثقة فيما يقال ، حتى بات من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، الثقة فى الأصوات الصادقة ، رغم أمانة وإخلاص أصحابها .

هذا ما حدث فى المرحلة التى كانت تسمى "مرحلة المد الثورى" ، إن كل ما تم إنجازه فى تلك المرحلة هو "كلام فى كلام" ، شعارات تُرفع ثم تهوى ثم تُرفع غيرها ثم تهوى ... وهكذا .

أما فى الوقت الحاضر فإن شعار "الإسلام هو الحل" يلخص توجهات التيار الذى يسعى إلى السلطة متستراً بعباءة الدين ، لأننا لو سألنا أصحاب هذا التيار : كيف يكون الإسلام هو الحل ؟ هل لديكم برنامج عمل واضح المعالم كفيل بمعالجة قضايانا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، خصوصاً أن هناك مشاكل جديدة نشأت نتيجة لمتطلبات العصر ، ولم يكن لأجدادنا عهد بها ؟ وكيف يكون حل مثل هذه المشكلات فى إطار إسلامى .

إننا لو طرحنا مثل هذه التساؤلات على أصحاب هذا التيار فإننا لن نجد لديهم سوى عبارات رنانة وشعارات براقة ، وبعبارة واحدة لن نجد لديهم سوى كلام .. فى كلام .. فى كلام ..

هذا عن حياتنا العامة ، أما فيما يتعلق بعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض فإنه من الملاحظ أن الألفاظ والعبارات قد فقدت دلالتها ومعناها ، إذ راجت بيننا تجارة الكلام المعسول الزائف ، فنحن كثيراً ما نصادف أشخاصاً قد برعوا فى التلاعب بالألفاظ وقلب الحقائق وفقاً لما تتطلبه مصلحتهم الخاصة دون أدنى اعتبار للمصلحة العامة ، وقد ارتقت المكانة الاجتماعية لهؤلاء الأشخاص وازدادت خطورتهم . لقد أصبحت الألفاظ على يد هؤلاء عملة زائفة ، فهم يقولون ما لا يفعلون دون أن يعتريهم خجل أو حياء ، ويأمرون الناس بالبر والتقوى وينسون أنفسهم ، ويحسبهم المرء حين يسمع أو يقرأ ما يقولون أو يكتبون بحماس وانفعال شديدين أنهم قدوة صالحة ينبغى أن تحتذى، أو أنهم حكماء يجب الاهتداء بتعاليمهم ووصاياهم، ولكن سرعان ما تكشف الأيام عن زيف أقوالهم ، وتهافت مواقفهم ، إن أمثال هؤلاء قد ينجحون فى خداع كل الناس بعض الوقت ، أو قد ينجحون فى خداع بعض الناس كل الوقت . ولكنهم أبداً لن ينجحوا فى خداع كل الناس كل الوقت .

بقى أن نقول إنه لم يعد أمامنا لمحاربة كل من يتاجر بالكلام سوى أن نواجهه بهذه العبارة : "لا تقل لى شيئاً ودعنى أرى".

الديمقراطية الغربية.. والاستبداد الإعلامى (*)

التهويل والتهوين وجهان متناقضان يميزان النهج الذى ينتهجه الإعلام الغربى فى تغطيته للأحداث ، فوسائل الإعلام التى تقتحم كل بيت ، والتى تخاطب أفراد الأسرة جميعاً ، والتى تقدم مواردها فى إطار من الترفيه أو التسلية ، تستطيع فى كثير من الأحيان ، بالتهويل أو التهوين مرة وبالإلحاح والإيحاء مرات ، أن تضلل عقل الإنسان وتزيف وعيه وتنحرف بإرادته فى اتجاهات مرسومة مقدماً.

فإذا أخذنا التلفزيون ، كمثال نعايشه يومياً ، فسنجده يزيف الوعى التجارى لدى المشاهد بالترويج لسلع معينة بين الناس ، حتى لو لم يكونوا فى حاجة ماسة لها ، وحتى لو كانت احتياجاتهم الحقيقية تتعلق بأشياء مختلفة عنها كل الاختلاف. ولكن الإلحاح عليها يتكرر ويتكرر تطبيقاً لقاعدة فى فنون الإعلان تقول إن "نقطة الماء إذا نزلت وباستمرار ، على نفس البقعة من كتلة الحجر فإنها قادرة فى يوم من الأيام أن تفلقها". وهكذا فإنه بالإلحاح والتكرار المستمرين تصبح السلعة الكمالية ضرورة تكاد تستحيل الحياة بدونها.

وعلى النحو نفسه يتم الترويج للقيم والأفكار ، عن طريق تضخيم أحداث ضئيلة الشأن ، والتهميش والتعتيم على الأحداث الكبيرة. وليست بعيدة عن الأذهان واقعة "موت الأميرة ديانا" والتغطية الإعلامية الواسعة لها. لقد انشغلت كل وسائل الإعلام لفترة زمنية طويلة بهذه الواقعة ، جسدتها وضخمتها وكأنها "حادثة كونية". وإذا كان الإعلام الغربى ينهج هذا النهج وفقاً

(*) جريدة "الوطن" الكويتية ، فى ٣ / ٧ / ١٩٩٨.

لمعايير تتعلق بالمصالح الخاصة للنظم الرأسمالية ، فإن المثير للدهشة والحزن معاً هو مسايرة وسائل الإعلام العربية للإعلام الغرب فى بعض ما يثيره من موضوعات ، منها على سبيل الدلالة لا الحصر الواقعة التى ذكرناها منذ قليل .

براعة الإعلام الغربى فى التهويل لا تضاهيها إلا براعته فى التهوين. إن مقارنة ضخامة المساحة الإعلامية التى خصصها الإعلام الغربى لواقعة "مصرع ديانا" بضآلة تلك التى خصصها "لمذبحة قانا" أو لمذابح "صبرا وشتيلا" التى ارتكبها الإسرائيليون فى لبنان ، إنما تكشف حقيقة النهج الذى ينتهجه هذا الإعلام ، الذى أقل ما يقال عنه إنه إعلام مضلل يفتقر إلى الموضوعية والنزاهة .

قد يبدو هذا الحكم للوهلة الأولى جائراً ومتسرعاً ، غير أن النظرة الأكثر عمقاً ترجح هذا الحكم وتؤكده ، ذلك لأن الإعلام الغربى يبدو فى الظاهر وكأنه الإعلام الحر المتاح للجميع ، بل يتخذ من هذا المظهر "الليبرالى" دعامة أساسية لدعايته ، على أساس أنه يتفوق به على إعلام النظم الاستبدادية تفوقاً ساحقاً ، ولكن هذا ليس إلا المظهر الخارجى فحسب، إذ إن الإعلام الغربى لا يعبر إلا عن مصالح فئة واحدة من الناس ، هى الفئة القادرة على أن تمول الإعلام بإعلاناتها ، ومن المعلوم أن الصحف الكبرى ومحطات التلفزيون تعتمد فى تمويلها – كلياً أو بنسبة كبيرة – على أموال المعلنين ، هذا فضلاً عن أن هذه المؤسسات الإعلامية الرئيسية هى فى أغلب الأحيان "شركات" تُسَيِّر أعمالها وفقاً للمنطق الرأسمالى البحت ، ولا يمكن أن تسمح بإعلام يؤدى إلى هدمها. وهكذا يفتقر هذا الإعلام إلى الصدق ، وإن كان يتبع أساليب أذكى ، وأبعد عن الطابع الصريح المباشر ، من تلك التى يتبعها إعلام النظم الاستبدادية .

خلاصة القول إن الإعلام الغربى إعلام مضلل ، يتلاعب بالعقول ، والتلاعب بالعقول لا يتماشى مع الحرية والديمقراطية التى يتغنى بها الغرب. وإذا كان المواطن فى بعض مجتمعاتنا العربية يخضع لاستبداد الحكام ، فإنه فى الغرب يخضع لاستبداد الإعلام ، الفارق بين هذا وذاك هو أن المواطن فى مجتمعاتنا العربية يدرك أنه مسلوب الحرية ، فى حين أن المواطن الغربى لا يدرك ذلك ، بل على العكس ، يعتقد أنه يمارس أعلى درجات الحرية ، غافلاً عن أن الإعلام البارع بأساليبه المدهشة يتغلغل إلى كل خلايا مخه ، ويوجهه إلى الوجهة المرسومة له مسبقاً .

إن الحاكم الحقيقى فى المجتمعات الغربية ليس رؤساء الدول والحكومات ، وإنما ملاك الصحف والمجلات الكبرى ومحطات الإذاعة والتلفزيون ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون الذين يحاسبون رؤساء الدول والحكومات ويسقطونهم ، فى حين لا يحاسبهم أو يسقطهم أحد. هذا هو الوجه الآخر للديمقراطية الغربية ، ولكنه الوجه القبيح.

مرض اسمه .. " الغش " (*)

الغش مرض اجتماعى ، أو بتعبير أدق هو رذيلة أخلاقية ، وسواء نظرنا إليه على أنه مرض أو رذيلة ، فإن انتشاره بين أفراد المجتمع – بخاصةٍ داخل قاعات الامتحان – إنما يقتضى نظرة متعمقة إلى الجذور التى انبتته والعوامل التى ساعدت على انتشاره.

قد تكون محاولة الغش أثناء تأدية الامتحانات الدراسية هى الصورة المألوفة للغش ، غير أن هذا لا يعنى عدم وجود مظاهر أخرى للغش فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية : فالبائع الذى يحرص على دس أجزاء تالفة فى السلع المباعة ، والمقاول الذى يغش فى مواد البناء ، والكاتب الذى ينافق ويتملق .. وباختصار نقول : إن كل من لا يقوم بأداء عمله على الوجه الأكمل هو إنسان غشاش.

غير أننا سوف نقتصر هنا على تحليل ظاهرة الغش المنتشرة بين الدارسين فى المدارس والجامعات ، إذ إن انتشار هذه الظاهرة بين التلاميذ والطلاب لا يكشف عن خلل فى العملية التعليمية فحسب ، وإنما يؤكد وجود تصدع فى البنية الاجتماعية. ولا شك أن النظرة الجزئية إلى الأمور هى التى تجعلنا نواجه ظاهرة الغش بمزيد من الرقابة الصارمة ، حتى لتغدو قاعات الامتحان أشبه بمعسكر الاعتقال ، ولكن هذه التدابير كلها لم تقض على الغش، بل ساعدت على انتشاره وأدت إلى تفنن الطلاب فى البحث عن أساليب للغش أذكى وأشد خفاءً. وحين تكون الظاهرة متأصلة على هذا النحو، يتعين أن نبحث

(*) جريدة "الأهرام المسائى" فى ٢٦ / ١ / ١٩٩٢.

عن أسبابها فى قيم المجتمع ، لا فى الوسط التعليمى وحده.

منذ سنوات قليلة حدثت ضجة كبرى بسبب ظاهرة "الغش الجماعى" ، ورأينا كيف أن الأهالى اقتحموا المدارس أثناء الامتحانات فى عدة محافظات لتمكين أبنائهم من الغش ، وأن مدارس أخرى أحيطت بمكبرات الصوت لإملاء الإجابة على التلاميذ والطلاب. ولقد تصدت السلطات المسئولة حينئذ لهذه الواقعة ، كما تناولت الصحف هذه الظاهرة بالتعليق والتحليل وأفردت لها الصفحات ، ثمَّ هدأت الأمور وكأن شيئاً لم يكن !!

ويبدو أن الانفعال الشديد بالحدث وقت وقوعه ، ثمَّ نسيانه بعد فترة من الزمن ، وكأنه لم يقع أصلاً ، هى سمة يتسم بها شعبنا والشعوب العربية عامةً ، ولما كنا لا نود الخوض فى مناقشة طويلة نحلل ونفند من خلالها هذه السمة ، فسوف نكتفى بالقول إن ظاهرة الغش مازالت باقية رغم كل التدابير التى تمت والتى تتم. ومن ثمَّ يتحتم أن يظل اهتمامنا بهذه الظاهرة قائماً مستمراً ، لا على أنها إحدى الظواهر الجزئية المتعلقة بالعملية التعليمية، وإنما بوصفها ظاهرة اجتماعية عامة. وليس من الصعب أن يقدم المرء أدلة وشواهد تثبت صحة هذه القضية ، بل إن الصعوبة ربما كانت تكمن فى اختيار أوضح الأمثلة من بين ذلك العدد الهائل من المشكلات التى تثبت كلها ارتباط أحوال التعليم بأوضاع المجتمع.

وعلى أية حال فإن عدداً قليلاً من الأمثلة الدالة ، يكفى لكى يثبت أن انتباهنا الراهن إلى عيوب التعليم ينبغى أن يفضى إلى وعى أوسع بالأصول الاجتماعية التى تولدت عنها هذه العيوب. فنحن مثلاً نعاقب الطالب الغشاش، ولكننا لا نعير التفاتاً إلى الأستاذ الذى يقرر على طلابه كتاباً عقيماً، فالهم الوحيد لهذا الأستاذ التاجر هو مقدار ما يحصل عليه من كسب مادى بغض

النظر عن الفائدة العلمية التى تعود على الطالب من دراسته لهذا الكتاب ، وإذا كان الطالب يتفنن فى أساليب الغش ، فإن الأستاذ يتفنن أيضاً فى أساليب التحايل من أجل ترويج كتبه ، فهو يبدل ويغير فى فصول كتبه المقررة على الطلاب دون أن يضيف جديداً ، والهدف فى النهاية هو الكسب المادى لا المصلحة العلمية .

إذا كان الكتاب رديئاً ، والمادة العلمية عقيمة ، والأستاذ لا يشرح شيئاً، وهدف الطالب هو الحصول على شهادة أو "رخصة" تمكنه من الالتحاق بعمل أو وظيفة لا وجود لهما ، فماذا نتوقع من الطالب سوى الغش إذا اتيحت له الفرصة.

إن هذه ليست دعوة إلى الغش أو تبريراً له ، بقدر ما هى كشف عن خلل اجتماعى من ضحاياه الطالب والأستاذ معاً .

تبقى مسألة أخرى تتعلق بظاهرة الغش ، وهى غياب القيم الديمقراطية. فالعملية التعليمية فى بلادنا تفتقر إلى روح الحرية ، إذ نجد الأستاذ داخل قاعة الدرس يقف وسط جمع من الطلاب الصامتين الخاشعين وكأنه نبى أو إله. هو يقول والطالب يتلقى أقواله دون جدل أو حوار .

فى اعتقادى أنه ليس هناك ما هو أخطر على عقلية الدارس من هذه الطريقة الدكتاتورية فى التعليم ، التى تجعل الأساتذة أوصياء على عقول الطلاب وأرواحهم. وكأن هؤلاء الطلاب مجرد أجهزة تستقبل كل ما يأتيها دون أن ترسل من عندها شيئاً. إن هذه الطريقة فى التعليم لها أضرار وعواقب وخيمة تهدد مستقبل الأمم قبل الأفراد ، لأنها تكرس قيم الخضوع والاستكانة ، فهى فى صميمها تستند إلى مفهوم الأستاذ "الأوحد" ، وبالتالى فهى تروج لفكرة "الزعيم الأوحد".

إن فتح باب الحوار والمناقشة داخل قاعة الدرس ، هو أمر مرفوض من قبل بعض الأساتذة بزعم أن هذا الأمر سوف يؤدى إلى الفوضى والاضطراب بين الطلاب ، وبالتالى عدم إفادتهم الإفادة العلمية الواجبة. غير أن هذا الزعم هو أبعد ما يكون عن الصواب ، لأن الطالب يشعر بمسئولية أكبر عندما يتوافر له قدر أوفر من الحرية. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن العملية التعليمية عندما تسير من قطب موجب هو الأستاذ وقطب سالب هو الطلاب ، إنما تؤدى فى نهاية الأمر – كما هو الحال عندنا – إلى ظاهرة الحفظ الحرفى للمعلومات العلمية ، دون محاولة هضم هذه المعلومات أو الاعتماد عليها فى حل المشكلات التى يواجهها الإنسان فى حياته ، ولا شك أن ظاهرة الحفظ تفضى على ظاهرة الغش .

مما سبق يتضح لنا عقم محاولة معالجة أية ظاهرة اجتماعية بمعزل عن الفهم الصحيح لبقية الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة.

obeikan.com

سمات التطور العلمى من خلال منظور فلسفى

فى عدد الجمعة من جريدة الأهرام الصادر صباح ٢٨ / ٣ / ١٩٨٦ ، طالعت – فى صفحة "فكر وثقافة" – مقالاً بعنوان "العالَم بين الاحتمالية واليقين الرياضى" بقلم أحد الكتَّاب ، مضمون المقال يتلخص فى القضية القائلة : "إن الاحتمالية أصبحت الآن عامة شاملة لمجمل نسق العلم". ولنا على هذا المقال عدة ملاحظات نعرضها فى السطور التالية .

بادئ ذى بدء نتفق مع الكاتب على أن تطور العلوم فى القرن العشرين أدى إلى القول بالاحتمال ، فمع بداية القرن العشرين أدى تطور الفيزياء إلى إعادة النظر فى فكرة القوانين الطبيعية ، وانتهى بفلسفة جديدة للسببية ، فلقد اتضح من أبحاث ميكانيكا الكم الحديثة (الكوانتم Quantum) أن الحوادث الذرية المفردة لا تقبل تفسيراً سببياً ، بل تحكمها قوانين الاحتمال .

ومع هذا نود أن نؤكد على أن الفيزياء الحديثة لم تؤد إلى استبعاد قوانين الفيزياء الكلاسيكية استبعاداً تاماً ، بل أهم ما فعلته أنها قيدت مجالات تطبيقها ، فلم يعد فى الإمكان تطبيق قوانين نيوتن للحركة على بعض الجسيمات ؛ وهى الالكترونات التى تتحرك بسرعة تقارب سرعة الضوء داخل الذرة ، فضلاً عن أنه من المستحيل فى الفيزياء النووية أن نهمل التغيرات التى تسببها عملية الملاحظة على الشىء الذى نفحصه. أما إذا كنا نتعامل مع مفاهيم مثل "الكتلة" و"السرعة" ونريد تطبيقها تطبيقاً مباشراً ، سنجد أن قوانين نيوتن مازالت صالحة. ولذا يمكن القول إن الأخذ بمفهوم الاحتمال لا يعنى "**الغاء**" فكرة السببية ، بل يعنى "**تقييد**" مجالات تطبيقها. إذ إن هناك مجالات تكون العلاقات فيها مباشرة بين عامل وآخر ناتج عنه ، كالعلاقة بين جرثومة

معينة ومرض معين. فى مثل هذه المجالات تظل فكرة السببية مستخدمة وتظل لها فائدة كبرى فى العلم .

ومن جهة أخرى نرى أنه ليس هناك ما يدعو إلى التعصب لعلمنا المعاصر ، فنصف نظريات السابقين بأنها لا علمية أو أن عصرهم كان عصر جهل وتخلف لمجرد أن نظرياتهم لا تتفق مع مبادئ العلم التى تسود عصرنا. إننا اليوم نأخذ ببعض النظريات العلمية لأنها أقصى ما وصلت إليه معرفتنا العلمية ، ولو كان فى مقدورنا معرفة المزيد ما توانينا عن ذلك ، وليس هناك ما يمنع قيام نظريات علمية جديدة فى المستقبل القريب أو البعيد لتحل محل نظريات عصرنا. فيكون هناك فكر جديد يقوم على أكتاف فكر مضى وهو نفسه فكر هذا العصر الذى نعيش فيه .

وانطلاقاً مما سبق نرى أن ظهور هندسات لاأقليدية أو نظريات علمية لا تتفق وفيزياء نيوتن ، لا يخول لنا الحق فى إظهار عدم الاحترام نحو علماء من أمثال أقليدس ونيوتن. أو أن نصف كل من وثق يوماً فى الصدق المطلق لنظرياتهما بأنه "صرصار أعمى" – على حد تعبير كاتب المقال المذكور – لأنه إذا كان من الثابت اليوم أن الفيزياء الحديثة لم تعد تعترف ببديهيات الهندسة الأقليدية ، وببعض مفاهيم ونظريات الفيزياء الكلاسيكية. وإذا كنا نعلم اليوم أن الرياضة البحتة تحليلية ، وأن جميع تطبيقات الرياضة على الواقع الفيزيائى – وضمنها الهندسة الفيزيائية – لها صحة تجريبية ، ويمكن أن تصححها التجارب اللاحقة ، إذ كنا نعلم كل هذا ، فإننا لم نكتسب هذه المعرفة إلا فى الوقت الحالى ، بعد أن تم تجاوز فيزياء نيوتن وهندسة أقليدس. وأنه لمن الصعب أن يتصور المرء إمكان انهيار نسق علمى عندما يكون ذلك النسق فى أوج ازدهاره ، أما بعد أن أصبح هذا الانهيار حقيقة واقعة ، فما أسهل الإشارة إليه .

إن عظمة أقليدس ونيوتن لا تقل مثقال ذرة عن عظمة "ريمان" و"أينشتين" ؛ لأن كل عظيم مرتبط بزمانه ، لا يظهر إلا فيه ، وإذا كان كل عظيم يخطو بالعلم خطوة واسعة ، فإنه لا يخطر بباله أن يدعى أنه قد وضع الحدود النهائية لذلك العلم ، ومصير كل عظيم بالضرورة أن تقذف به إلى الوراء كل خطوة تخطوها الأجيال التالية إلى الأمام. إن أولئك العظماء أشبه ما يكونون بالجبابرة الذين قفز على أكتافهم أقزام تمكنوا بهذا من أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد مما يرى هؤلاء الجبابرة أنفسهم. ومعنى هذا أن العلوم تظل تتقدم بعد هؤلاء العظماء وبفضلهم ونتيجة للأثر الذى خلّفوه. ومن هنا كانت معارف خلفائهم العلمية أكثر عدداً مما عرفه هؤلاء العظماء فى زمانهم ، غير أن العظماء ، لا يفقدون من جراء ذلك عظمتهم .

obeikan.com

الفكر العلمى العربى
سلامة موسى أنموذجاً (*)

الكاتب الجيد هو الذى تشعر بعد أن تقرأ له بأن ثمَّة تغييراً إلى الأفضل قد طرأ على عقلك ووجدانك ، وتشعر أيضاً بعد قراءته أنك أصبحت إنساناً جديداً مختلفاً عما كنته قبل قراءته. وإذا صدق هذا المعيار على بعض المفكرين والكتَّاب مرةً، فإنه يصدق على سلامة موسى مرات ومرات.

كان قلم سلامة موسى أشبه بالمحراث الذى يشق الأذهان ويحفرها ويهيئها للزرع الجديد ، كانت أفكاره – على حد تعبير كامل الشناوى – أشبه بمطرقة تقرع الرؤوس لتنبهها وتثير اهتمامها ، وتنقلها من الخيال إلى الواقع، ومن الوهم إلى العلم ، ومن الخرافة إلى الحقيقة .

ولعل هذا هو سبب اختيارى لسلامة موسى ، ليكون موضوعاً لهذه الورقة التى أطرحها على حضراتكم الآن ، فالقضايا التى أثارها سلامة موسى منذ أوائل القرن العشرين ، وخاض فى سبيلها شتى المعارك : كالدعوة إلى التقدم الحضارى ، والعدالة الاجتماعية ، وإقامة مجتمع الحرية والديموقراطية والرخاء ، والعمل على سيادة التفكير العلمى والخروج من عالَم الخرافة إلى عالَم العقلانية والتحرر الفكرى.

كل هذه القضايا التى ناضل فى سبيلها سلامة موسى لا يزال أكثرها مطروحاً الآن ، وبعضها مطروح ربما بإلحاح أشد مما كان عليه الحال فى

(*) عُرِضَ هذا البحث فى الندوة الفلسفية الثانية عشرة للجمعية الفلسفية المصرية ، والتى كانت تحت عنوان "الفلسفة فى الوطن العربى فى مائة عام" ، وذلك فى الفترة من ١٨ إلى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٠.

زمن سلامة موسى نفسه.

ولكن من هو سلامة موسى ؟

سؤال يجب ألا يستغربه أغلب المثقفين الذين تأثروا بالرجل وكفاحه ، وتابعوا بالقراءة وأحياناً بالكتابة مسيرته الفكرية.

إن غرضى من طرح هذا السؤال هو الإشارة إلى مدى الغبن الذى وقع على هذا المفكر الكبير. فلقد تعرض فى حياته وبعد مماته لمؤامرة هدفها تغييبه عن عقول ووجدان الناس .

ولا أدل على ذلك من أنك إذا قلت طه حسين والعقاد ، لما استعصى عليك أن تجد لدى محدّثك فكرة عن هذين العملاقين مهما كانت ثقافة محدّثك، حتى ولو كان من الأجيال الجديدة التى لا تكاد تعرف شيئاً عمن سبقهم. ولكنك إذا أردت أن تحدثه عن سلامة موسى ، فلابد أن يواجهك بهذا السؤال :

من هو سلامة موسى ؟

ينتمى سلامة موسى إلى تيار حداثى يكاد يركز اجتهاده على تغيير وتجديد البنية الفكرية والثقافية كأساس للتحديث الشامل ، وهذا التيار فى معظمه عصرى ، يرتبط بالمفاهيم والقيم الأساسية للحضارة العصرية ، وهو لا يدعو إلى حضارة أخرى متميزة شأن التيار الدينى والقومى ، وإنما يدعو إلى الامتزاج فى هذه الحضارة العصرية ، مع مراعاة خصائصنا الذاتية والقومية كسبيل لتنمية هذه الذاتية والارتفاع بها إلى مستوى العصر. وقد بدا هذا التيار الفكرى – كما يقول الأستاذ محمود أمين العالم – مع بداية القرن العشرين متمثلاً فى الجهود التنويرية الكبيرة التى قام بها "شبل شميل" و"فرح أنطون" و "إسماعيل مظهر" و "يعقوب صروف" وغيرهم. وسوف نتناول فكر سلامة

موسى أنموذجاً لهذا التيار الحداثى. وسيقتصر حديثنا على الطابع العلمى لفكر سلامة موسى .

آمن سلامة موسى بقيمة العلم ، فهو يقول فى كتابه التثقيف الذاتى (ص١٩٢) :

"متى استطعنا أن ندرك أن كثيراً من الارتباك الذهنى ، فى السياسة والدين والاقتصاد وغيرها ، إنما يعود إلى أننا لا نعالج هذه الموضوعات بالطريقة العلمية ، بل نتركها بما تراكم عليها من تقاليد وعادات تحول دون تطورنا ورقينا ، عرفنا قيمة العلم".

لذلك أنفق سلامة موسى عمره كله فى تقريب الثقافة العلمية من مواطنيه وإيضاح أوجه الإفادة منها والانتفاع بها. وكانت الصحافة واحترافها وسيلته المثلى التى استطاع من خلالها التأثير فى محيطه ، وحافظ على الطابع العلمى التثقيفى لمجلته الشهرية "المجلة الجديدة". وقد قام الزميل الدكتور مجدى عبد الحافظ فى كتابه "سلامة موسى بين النهضة والتطور" (ص ص ٢٠ – ٢١) بإحصاء محتويات المجلدين الأول والثانى من (السنة الأولى) من المجلة الجديدة من نوفمبر سنة ١٩٢٩ إلى مايو ١٩٣٠. ولاحظ أن "الثقافة العلمية" تحتل المركز الأول ، إذ بلغ عدد المقالات المتعلقة بالثقافة العلمية ٧٠ من أصل ٣٦٦ ، بنسبة مئوية بلغت ٢٠.٨ % ، وقد زادت مقالات الثقافة العلمية فى الجزء الثانى بنسبة ١.٦%.

بالإضافة إلى ما تقدم يمكن القول إن أبسط الطرق لمعرفة الاتجاه العام لفكر أى كاتب أو مفكر هو النظر إلى عناوين مؤلفاته ، وعلى ذلك فإن إلقاء نظرة سريعة إلى عناوين أهم الكتب التى وضعها سلامة موسى تكشف عن غلبة الطابع العلمى لفكره ، فمن أبرز مؤلفاته :

- مقدمة السوبرمان
- نشوء فكرة الله
- الاشتراكية
- أحلام الفلاسفة
- حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ
- العقل الباطن ومكنونات النفس
- نظرية التطور وأصل الإنسان
- السيكولوجية فى حياتنا اليومية
- ما هى النهضة ؟
- الدنيا بعد ٣٠ عاماً
- الشخصية الناجحة
- حياتنا بعد الخمسين
- التثقيف الذاتى
- عقلى وعقلك
- تربية سلامة موسى
- محاولات سيكولوجية
- هؤلاء علمونى
- كتاب الثورات

obeikan.com

- دراسات سيكولوجية
- برنارد شو
- مقالات ممنوعة
- الإنسان قمة التطور

هذه المؤلفات وغيرها تكشف عن الحرص الشديد من جانب سلامة موسى على نشر الثقافة العلمية .

ولكى نستطيع استيعاب الطابع العلمى لفكر سلامة موسى ، والذى ساد كتاباته طوال خمسين سنة ، وجب علينا قبل كل شىء أن نشير إلى العصر الذى عاش فيه ، وندرس الأحداث العلمية التى شهدها ، وتأثر بها ، فهذه الأحداث تكشف لنا عن مصادر فكره .

عاش سلامة موسى فى النصف الأول من القرن العشرين ، وهو قرن كثرت فيه الكشوف العلمية والاختراعات ، فظهرت النسبية الخاصة والعامة "لأينشتين" وميكانيكا الكم "لبلانك". أما فى الميدان السياسى ، فقد طغت الدعوة إلى الحرية والاشتراكية والتحرر والبعث القومى .

ولكن أبرز الأحداث التى وقعت فى النصف الأول من القرن العشرين هو نشوب الحربين العالميتين الأولى والثانية. ورغم الطابع السياسى والعسكرى البارز لهذين الحدثين فإن سلامة موسى يفسرهما بطريقة خاصة تنم عن عمق إيمانه بالعلم وأهميته وتأثيره البالغ ، إذ يقول فى كتابه "هؤلاء علمونى" تحت عنوان "المؤلفون يغيرون الدنيا" :

> "عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون

اخترعوا الآلات أو ابتكروا الأساليب أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة "

ثم يستطرد قائلاً :

"إذا تأملنا هاتين الحربين الكبيرين الأخيرتين ، فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب ، ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب فى إثارتهما ، لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو (جيمس واط) فى ١٧٧٦".

ولا ننسى إنه فى مجال العلوم الطبيعية أيضاً ظهرت كشوف هائلة بالنسبة للإنسان ، كشوف تبحث عن أصله وارتقاءه وتقدمه. وظلت هذه الأفكار الجديدة تشغل أوربا ، وكثر حولها الجدل والنقاش بين العلماء والمفكرين والفلاسفة. هذه الأحداث التى شهدها سلامة موسى – علمية كانت أو سياسية – والتى أثرت فيه تأثيراً بالغاً لم يشهدها فى مصر ، ولم يتعرف إليها فى أى بلد عربى، إذ إن مصر فى ذلك الوقت ، بل الشرق كله، كان يعيش فى حالة تخلف ، لقد شهد سلامة موسى كل هذه الأحداث العلمية فى الغرب ، فأحب ثقافته وحضارته ورقيه ، وأبغض الغرب المستعمر الغاصب المتجنى على الحريات .

لقد وجد فى الغرب الإنسان القادر المنتصر الذى يؤمن بالعلم والتطور والاختراع.

وتطلع إلى الإنسان الشرقى فوجده يرسف فى أغلال الجهل والفقر والمرض غارقاً فى أجواء الخرافات والتقاليد والتعاويذ.

ولكى يزلزل سلامة موسى هذه الخرافات والعقائد فى عقول الشرقيين لجأ إلى "نظرية التطور" فهو يؤكد فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه "نظرية التطور وأصل الإنسان" ص٩ :

"إن المستوعب لهذه النظرية – إذا ما كانت قد استحالت فى نفسه مزاجاً ومذهباً – يشعر بتحرره من أغلال التقاليد ، ويستطيع لذلك أن ينظر النظرة البكر لشئون هذا العالَم. وهو يسمو على الاختلافات الدينية التى مزقت أوربا فى القرون الماضية ولا تزال تمزق أقطاراً عديدة فى آسيا وأفريقيا"

صحيح أن سلامة موسى لم يكن أول من كتب فى نظرية التطور وأصل الأنواع ، إذ سبقه إلى ذلك "شبل شميل" ، لكن سلامة موسى كان أول من كتب عن إعلان "داروين" و"لامارك" كلاماً مفهوماً ليست فيه حذلقة العلماء وتكلفهم ، كلاماً يفهمه طلاب الجامعة ، بل وحتى القارئ العادى ، ولم تكن بساطته فى العلم فقط ، بل بساطة فى التعبير هى ثمرة التفكير الواضح المرتب والبيان الدقيق. أما اللغة التى يعبر بها عن علمه وفكره ، فكانت لا تقل جدَّة عما كان ينشره من علم وفكر ، فعباراته قدت على قد المعنى ، إن حب سلامة موسى لداروين ، وتحيزه لنظرية التطور منذ نشأته الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوب الكتابة عنده ، فالأسلوب يدل على الاتجاه الفكرى للكاتب ، وها هو يقول [١] :

"أنا أوثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم ، والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يُوصف بأنه أدبى".

(١) انظر كتابه ، تربية سلامة موسى ، ص١١٨.

كما يقول [١] واصفاً كتاباته بأن "ليس فيها أقل عناية بالصناعات البديعية أو البيانية" ، بل هى مكتوبة بما اعتقد سلامة موسى "أنه سيكون أسلوب المستقبل وهو الأسلوب (التلغرافى) حيث لا تزيد الألفاظ على المعانى".

أخذت نظرية التطور عند سلامة موسى مكاناً دينياً ، فنظر إليها بوصفها دينه الجديد ، حيث لم تكن بالنسبة له نظرية علمية فحسب ، بل كانت فى تصوره فكرة كفاحية ، استطاعت أن تتصدى للجمود والعقائد والتقاليد الموروثة [٢] ، إذ يؤكد قائلاً :

"عندما استبطن إحساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الإحساس هو التطور" [٣].

وهذا الإحساس الدينى عند سلامة موسى هو فهم وممارسة، ولذلك يقول:

"إنى أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما فى ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التى نبض بها طين السواحل قبل ٧٠٠ مليون سنة هى عنصرنا الأول. وأننا مازلنا ننبض ونتغير فى تجارب لا تنقطع. وأن سُنَّتنا هي لذلك سُنَّة التغير ، وجريمتنا هى لذلك جريمة الجمود".

هذا هو السبب الذى دفع سلامة موسى إلى تأليف كتابه "نظرية التطور وأصل الإنسان"، ليكافح الغيبيات الشائعة عند الجمهور. ولهذا نشره على هيئة مقالات فى جريدة "البلاغ" قبل طبعه كتاباً كى يصل إلى أكبر عدد من القرّاء. ولهذا أيضاً كان يسعى إلى إيجاد حركة علمية شعبية فى مصر، فأنشأ

(١) انظر ، مختارات سلامة موسى ، ص٦.

(٢) د.مجدى عبد الحافظ ، سلامة موسى بين النهضة والتطور ، ص٢٨.

(٣) انظر كتابه ، تربية سلامة موسى ، تحت عنوان "تربيتى العلمية" ، ص١٢١.

عام ١٩٣٠ – مع فؤاد صروف وآخرين – "المجمع المصرى للثقافة العلمية" بغية نشر الثقافة العلمية بين الناس.

ولنستمع إليه يقول [١] :

"نحتاج إلى ثقافة علمية تعم الشعب حتى يترك غيبياته وينزل على قوانين المادة فى الزراعة ، والصحة ، والصناعة ، حتى تعمه العقلانية العلمية ، فيحل مشكلات الزواج والطلاق ، والعائلة ، والجريمة ، والتربية والسياسة ، بأساليب العلم ، وليس وفقاً وخضوعاً للتقاليد والعقائد".

ويستطرد قائلاً [٢] :

"وهذه النزعة العلمية فى الشعب هى التى تحفز على التخصص العلمى ، وعلى مكافأة العلميين ، والاستماع لهم فى نصائحهم وتوصياتهم بشأن الارتقاء المادى لبلادنا".

وهذا الارتقاء المادى – كان فى نظره – هو أساس الارتقاء الاجتماعى والثقافى والفنى .

لم يطلب سلامة موسى ، إذن ، العلم من أجل العلم ، بل كان هدفه هو تحويل العلم إلى ثقافة ، وكان همه أن تكون هذه الثقافة جماهيرية .

---

(١) انظر كتابه ، البلاغة العصرية ، واللغة العربية ، ص ص ١٨٢ – ١٨٣.

(٢) المرجع السابق ص١٨٣.

الإبستمولوجيا :
مثال فلسفة الفيزياء النيوتونية (*)

مصطلح "إبستمولوجيا" يعنى فى اللغة الفرنسية "نظرية العلم" أو نظرية "المعرفة العلمية"[1] ، وهو استخدام حديث نسبياً وخاص بالثقافة الفرنسية ، فالكلمة – كما هو معروف – يونانية الأصل ، وهى مؤلفة من مقطعين Episteme بمعنى معرفة ، و Logos بمعنى علم ، فهى "علم المعرفة" أيّاً كانت ، وإن كان الفرنسيون قصروها على المعرفة العلمية. حقيقةً إن كل فلسفة تحتوى على نظرة خاصة للمعرفة ، وقد أكد ذلك أفلاطون قديماً على سبيل المثال ، فى محاورة "ثياتيتوس" التى يعرض فيها نظريته فى العلم[2] ؛ أى المعرفة الحقة أو الفلسفة. ولكن لفظ "العلم" اكتسب منذ القرن الثامن عشر معنى أضيق نطاقاً وأكثر تحديداً ، فما نقصده اليوم بمصطلح "علم" Science هو الفيزياء ، والرياضيات ، وعلوم الحياة ، وأيضاً علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم التاريخ. . إلخ. وقد برز هذا المعنى الجديد متأخراً جداً.

أما مصطلح "إبستمولوجيا" فهو وإن كان يونانى الأصل ، كما قلنا ، فإنه يُسْتَخدم فى كثير من اللغات مع اختلاف فى الرسم والنطق. فهو يُسْتَعمل فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ويستخدم العرب هذا المصطلح ، بالحروف اللاتينية ، بخاصةٍ فى المغرب العربى ، لكن الإشكال فى هذا الصدد هو اختلاف هذه اللغات حول معانى هذا المصطلح ، إذ إن الفرنسيين يميزون بصفة عامة بين "الإبستمولوجيا" ونظرية المعرفة (إذا ما استثنينا بعض

(*) هذا عرض لكتاب من تأليف الدكتور عبد القادر بشتة يحمل عنوان هذا المقال نفسه ، وقد نُشِرَ هذا العرض بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد الثامن والستون ، السنة السابعة عشرة ، خريف ١٩٩٩.

المفكرين أمثال "جان بياجيه" J. Piaget). أما الأنجلو ساكسون فيقصدون بمصطلح "الإبستمولوجيا" ، نظرية المعرفة بوصفها تبحث عن حدود المعرفة وشروطها ومصادرها ، ولا يبدو أنهم يؤكدون وجود علاقة خاصة بين "الإبستمولوجيا" وتاريخ العلوم أو علم المناهج. هذا وقد اتبع هذا المعنى الإيطاليون والألمان ، وأيضاً عرب المشرق الذين يتخذون بدورهم البريطانيين والأمريكان نموذجاً لهم.

ولا شك أن هذا الاختلاف أدى إلى تنوع الممارسات الإبستمولوجية حتى داخل المجال الفرنسى نفسه ، فشتان مثلاً بين إبستمولوجيا "بياجيه" التى تساوى بين "الإبستمولوجيا" ونظرية المعرفة ، والتى تستند إلى علم النفس التكوينى ، وبين الممارسة الإبستمولوجية الباشلارية[٣] التى ترتكز أساساً على تحليل المفاهيم الفيزيائية .

مما سبق تتضح صعوبة تعريف الإبستمولوجيا وتحديد ملامحها. وقد انتبه الدكتور عبد القادر بشته إلى هذه الصعوبة ، وأشار إليها فى تقديمه لكتابه "الإبستمولوجيا – مثال فلسفة الفيزياء النيوتونية" ، الذى نحن بصدد عرضه. ولمعالجة موضوع الإبستمولوجيا معالجة دقيقة وشاملة اتبع المؤلف المنهج التحليلى النقدى ، إذ حرص على نقد وتحليل المواقف الفكرية الأساسية ، بحثاً عن الجذور الفلسفية للنظريات والاتجاهات العلمية. إلا أن منهجه النقدى هو مع ذلك منهج تاريخى فى آن واحد ، إذ قام بتعقب بعض المشكلات الفلسفية والعلمية من حيث ظهورها وتطورها واتجاهاتها عبر التاريخ الطويل للفلسفة والعلم معاً ، بحيث يبدو فى حقيقة الأمر أن البحث ليس تحليلياً نقدياً فحسب ، وإنما هو أيضاً تأريخ لبعض الاتجاهات والنظريات الفلسفية والعلمية.

قام المؤلف بتقسيم الكتاب إلى أربعة فصول ، فضلاً عن ملحق "قيمة الكتاب الأول وما قبله" ، ويقصد بالكتاب الأول المؤلَّف الأساسى لنيوتن "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" الذى صدر عام ١٦٨٦. واختتم الدكتور عبد القادر بشته كتابه بقائمة مصادر يمكن اعتمادها فى الفصل الرابع. والكتاب من القطع الصغير ، يقع فى ١٢٥ صفحة ، وهو صادر عن دار الطليعة ببيروت .

١- موقع الإبستمولوجيا بين الفلسفة والعلم

أراد المؤلف فى الفصل الأول الذى عنوانه "موقع الإبستمولوجيا بين الفلسفة والعلم" الانطلاق من الأصل اللغوى لمصطلح "الإبستمولوجيا" من أجل تحقيق هدفين ، أولهما التزام موقف حيادى ، فهو يقول : "وهكذا نلازم مبدئياً الحياد" (صفحة ٧) ، على الرغم من أن هذا الموقف الحيادى يتعارض مع جوهر التفلسف ، إذ لابد فى مجال الفلسفة من اتخاذ موقف واضح المعالم (بالقبول أو الرفض) تجاه كل المسائل المتعلقة بالإنسان والمجتمع والكون ، على أن يستند هذا الموقف إلى التبرير العقلى.

أما الهدف الثانى الذى أراد الكاتب تحقيقه من معالجة الأصل اللغوى لمصطلح "إبستمولوجيا" فهو "ضبط موقع الإبستمولوجيا بين الفلسفة والعلم" (صفحة ٧).

ويختتم هذا الفصل بخاتمة يعرض فيها النتيجة التى توصل إليها من تحليله للأصل اللغوى لمصطلح "إبستمولوجيا" ، فيقول "ينتج من تحليلنا السابق أن الإبستمولوجيا هى فلسفة علوم" (صفحة ٣٠) ، وهذه النتيجة تفترض ملاحظتين ، يعرضهما المؤلف على النحو التالى :

أ – إن هذه النتيجة هى نتيجة مبدئية نظرية وتستدعى بالتالى تبريراً جديداً،

انطلاقاً من الواقع الإبستمولوجى ، ومن الممارسات الإبستمولوجية المختلفة .

ب – فضلاً عن ذلك ، فإن هذه النتيجة لا تقول شيئاً عن علاقة الإبستمولوجيا أو فلسفة العلوم بإخوانها أو جيرانها ؛ مثل نظرية المعرفة وتاريخ العلوم ، فقد أحسسنا بقرابتها الشديدة إلى فلسفة المعرفة ، ثم إن علاقة الإبستمولوجيا بتاريخ العلوم محل نقاش وتحليل (صفحة ٣٢).

ومن ثمَّ ينتقل المؤلف إلى الفصل الثانى وهو بعنوان "الإبستمولوجيا وأخواها" ويقصد بهما نظرية المعرفة وتاريخ العلوم ، مستهدفاً تبرير النتيجة التى توصل إليها. (إن الإبستمولوجيا هى فلسفة علوم) ، وذلك بالرجوع إلى الواقع الإبستمولوجى.

٢- الإبستمولوجيا وأخواها

يعقد المؤلف فى هذا الفصل مقارنة بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة من ناحية ، وبين الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم من ناحية أخرى ، ويرى "أن الإبستمولوجيا تلتقى مع نظرية المعرفة على مستوى المنهج الفلسفى المؤسس لموضوع بحثه ، وبهذه الصفة فهما توأمان منحدران من أصل واحد ومن جنس واحد هو الجنس الفلسفى. لكن نظرية المعرفة تبدو لنا أقرب إلى الإبستمولوجيا التركيبية غير التاريخية التى تتخذ من تاريخ العلوم مرجعاً لا منهجاً" (صفحة ٤٢). "لكن مجال الإبستمولوجيا أضيق من المجال المعرفى وهو عنصر من عناصره" (صفحة ٥٤).

ومن ناحية أخرى ، يرى المؤلف "أن الإبستمولوجيا تستند إلى مرجع ضرورى هو التاريخ الموضوعى للعلم. والتجانس قائم بصفة مؤكدة بين الإبستمولوجيا والبحث فى التاريخ الموضوعى للعلم باعتبار أن الاثنين يبحثان

فى الأصول والأسس العلمية" (صفحة ٥٤).

وفى هذا الفصل يتناول الكاتب نموذجاً إبستمولوجياً هو نموذج "باشلار" Bachelard (1884 – 1662) ، ويبحث فى علاقته بنظرية المعرفة ، ثم يتناول مثالاً من نظرية المعرفة هو مثال "كانط" Kant ليرى صلته بالإبستمولوجيا. ويخلص إلى أن "الفرق بين باشلار وكانط واضح فى هذا المجال ، فقد أسس كانط – انطلاقاً من الإبستمولوجيا – نظرية فى المعرفة واضحة المعالم مترابطة الأطراف. أما باشلار فقد اكتفى بالتلميح والإشارة. ومن هذه الزاوية يمكن تأكيد أن كانط قد وصل إلى مرحلة من النضج الفلسفى لم يصل إليها باشلار ، لأن تأسيس نظرية فى المعرفة يمثل تطوراً جلياً" (صفحات ٤٦ – ٤٧).

ثم ينتقل المؤلف إلى الفصل الثالث الذى جعل عنوانه "الإبستمولوجيا وعلم المناهج".

٣- الإبستمولوجيا وعلم المناهج

يتساءل بلانشيه : هل ينبغى أن نرى فى الإبستمولوجيا وعلم مناهج البحث ميدانين متميزين وإن كانا متجاورين ، أم نُدْخِل الثانى فى الأول على أساس أنه أحد عناصره المكونة ؟ إن معجم لالاند Lalande الفلسفى يميز بين الاثنين ؛ فقد ورد فيه أن الإبستمولوجيا "ليست هى الدراسة الخالصة للمناهج العلمية ، فهذا هو موضوع علم مناهج البحث الذى هو جزء من المنطق" ، أما موضوع الإبستمولوجيا الأساسى "فهو الدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها". ومعنى هذا أن دراسة علم مناهج البحث إنما تنبع من دراسة المنطق ، فالأول ما هو إلا أحد الأقسام الداخلية للثانى[٤]. ويقرر بلانشيه أن مثل هذا الفهم للمنطق ومناهج البحث لا يمكن

الدفاع عنه اليوم ، وإن كان هناك من الأسباب التاريخية العرضية ما يكفى لتبريره[٥]. ويؤكد بلانشيه إن التفرقة التى قام بها لالاند بين الإبستمولوجيا وعلم مناهج البحث تخص القرن التاسع عشر فى فرنسا ، حيث كان علم المناهج جزءاً لا يتجزأ من المنطق ، حسب ما كان معمولاً به فى مستوى التقاليد الجامعية الفرنسية.

ويتبنى المؤلف فى هذا الفصل وجهة نظر بلانشيه ، مؤكداً أن فى وسع الإبستمولوجى "البحث فى سائر المناهج العلمية ، فيعتنى بالمناهج الفيزيائية والمناهج الرياضية ، وحتى بأساليب البحث فى العلوم الإنسانية كعلمى التاريخ والاجتماع" (صفحة ٧٨). ويقول مقللاً من أهمية ما أعلنه لالاند : "وفى الحقيقة لقد ارتبطت أطروحة لالاند الفاصلة بين الإبستمولوجيا وعلم المناهج بظروف تربوية كانت تخص الثقافة الفرنسية وحدها فى زمن ولىّ وانتهى" (صفحة ٧٨).

٤- فلسفة الفيزياء النيوتونية

أما الفصل الرابع والأخير والذى عنوانه "فلسفة الفيزياء النيوتونية" فقد أراده المؤلف أن يكون تطبيقاً عملياً للنتيجة التى توصل إليها نظرياً ، وهى أن "الإبستمولوجيا هى فلسفة للعلوم". يوضح هذا الفصل أن المنهج النيوتونى ليس تجريبياً بحتاً ، وليس عقلياً خالصاً ، بل مزيج من الاثنين معاً ؛ فنيوتن يصرح بأن القيام بالتجارب أمر أساسى فى الفيزياء ، لكنه يتمسك بضرورة التعبير عن الظواهر الطبيعية بلغة الرياضيات ، وضرورة البحث عن عللها بخاصةٍ الفاعلة منها .

ويرى المؤلف "أن نيوتن قد أنشأ عالماً مجرداً يختلف عن العالَم الحسى الذى نعيش فيه ، لكنه غير منفصل عنه تماماً. والعلم عموماً – الحديث منه

والمعاصر – لا يبحث فى الطبيعة التى ندركها بحواسنا المجردة، بل يخلق لنفسه طبيعة عقلية ومصطنعة. ويزداد العلم ابتعاداً عن عالمنا كلما ازداد تقدماً وارتقاءً. كما تعتنى العلوم المعاصرة بطبيعة تكاد تكون خيالية... والتجربة العلمية بهذا المعنى ليست "معملية" يدوية ، وإنما هى ذهنية وعقلية بالضرورة ، دون قطيعة مع المجال الحسى. .. وفى هذا الإطار تحديداً يمكن استيعاب مفاهيم نيوتن وقوانينه الفيزيائية التى تقتضى العقلانية ، مع أخذ المعطيات الحسية فى الاعتبار. كما يمكن أن نتبين الأمثلة التى يقدمها نيوتن لتبرير قوانينه كحالة الحصان الذى يجر عربة ، فيستعمل حسب النص قوة تساوى قوة العربة فى إتجاه معاكس لها. وهذه التجربة القصيرة هى بالضرورة عقلية ، إذ لا يمكن تبرير محتواها بالرجوع إلى الواقع الحسى. وفى الحقيقة لقد صدق كانط حين أوضح – متخذاً نيوتن نموذجاً لفكره – أن التجربة هى تأليف بين العقل والعيان المجرد. وهى كذلك فعلاً" (هامش صفحات ١٠٨ – ١٠٩).

واضح أيضاً "أن الطبيعة عند نيوتن ليست العالَم المعتاد الذى ندركه بحواسنا ، كما أنها ليست كائناً خيالياً غريباً كل الغرابة عن مجال إدراكنا الحسى. إنها حسية وعقلية فى الوقت نفسه ، بمعنى أن العناصر المكونة للكون هى عناصر عقلية ، لكنها ليست مقطوعة عن مجال التجربة الحسية بل تدل عليه ؛ فالكتلة والقوة مثلاً هما كيانان رياضيان بدون أدنى شك ، لكنهما مرتبطان بالمادة. فضلاً عن ذلك ، فإن نيوتن لا يرى قطيعة جذرية بين المطلق والنسبى. فالمكان المطلق والمكان النسبى متماثلان من ناحية النوع والحجم ، لكنهما يختلفان من ناحية العدد. وهذا أمر طبيعى لأن الأماكن النسبية متعددة بينما المكان المطلق واحد. ثم إن الزمان النسبى هو فى رأى نيوتن قياس جزء من الزمان المطلق" (صفحات ١٠٩-١١٩).

بقى أن نقول إن المؤلف كان موفقاً فى اختياره لموضوع بحثه ، كما أنه

عرضه عرضاً واضحاً ، وإن كنا نختلف معه فى ترجمته لبعض المصطلحات ، فهو يترجم "Space" بـ "فضاء" فى حين أن الترجمة الأدق والتى أصبحت مستقرة الآن هى "مكان" (انظر صفحات : ٤٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠).

كما أنه يستخدم عبارات مثل "ترييض الظواهر الطبيعية" (صفحة ١٠٨ وغيرها). والأفضل فى رأينا أن نقول "التعبير الرياضى عن الظواهر الطبيعية" أو "التعبير عن الظواهر الطبيعية بلغة رياضية". قد تكون العبارة التى نقترحها أطول قليلاً ، ولكنها أوضح كثيراً.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يقول المؤلف فى صفحة ١٩ : "واستفادت هكذا الفيزياء المعاصرة من تعاليم ديفيد هيوم حول السببية". غير أن هذا الكلام فى حقيقة الأمر ليس دقيقاً ، ذلك "لأن أقصى ما فعلته المذاهب الفلسفية السابقة على ظهور الفيزياء المعاصرة [ومن بينها فلسفة هيوم] هو التفكير فى مرحلة المعرفة العلمية السائدة فى عصرها. غير أنها لم تسهم بشىء فى تطور العلم ، فالتطور المنطقى للمشكلات من عمل العالِم ، إذ إن تحليله الفنى – وإن كان يوجه فى كثير من الأحيان نحو تفاصيل صغيرة ، ونادراً ما يجرى لأغراض فلسفية – قد أدى إلى زيادة فهم المشكلة إلى أن أصبحت المعرفة الفنية بمضى الوقت ، من الاكتمال بحيث تسمح بالإجابة عن الأسئلة الفلسفية" (٦).

أخيراً يقول المؤلف فى صفحة ٣٩ : "نذكر من بين المثاليين : بركلى وديكارت". فهو يصنف "بركلى" فى هذه الفقرة بوصفه "مثالياً" ويضم إليه ديكارت، أو يضمه إلى ديكارت. فى حين أنه يقول فى صفحة ٤٢ : "فعندما نتحدث مثلاً عن التجريبيين ؛ أى عن هيوم ولوك وبركلى وغيرهم. . ."

إذا كان المؤلف فى الاقتباس الأول قد صنف بركلى بوصفه فيلسوفاً "مثاليّاً" ، فإنه فى الاقتباس الثانى يصنّفه بوصفه "تجريبيًّا" ، فهو يضمه فى موضع إلى الفيلسوف المثالى الشهير "ديكارت" ، ويدخله فى موضع آخر إلى زمرة التجريبيين أمثال "هيوم" و "لوك". فأيهما يا ترى – فى رأى المؤلف – هو التصنيف الصحيح لبركلى ؟ أم أنه لا يرى فرقاً بين أن يكون الفيلسوف مثالياً أو تجريبياً ؟

obeikan.com

الهوامش والمراجع

(١) د. حسن عبد الحميد ، تقديمه لترجمته لكتاب بلانشيه نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا) ، مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٨٦ ، ص٧.

(٢) بلانشيه (روبير) ، نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا) ، ترجمة د. حسن عبد الحميد ، ص٣٥.

(٣) نسبةً إلى الفيلسوف والإبستمولوجى الفرنسى جاستون باشلار Gaston Bachelard .

(٤) بلانشيه ، نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا) ، ص٥٣.

(٥) المرجع السابق ، الموضع نفسه.

(٦) ريشنباخ (هانز) ، نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص١١٠.

أزمة الفيزياء الكلاسيكية

الموضوع الذى نعرض له الآن هو "أزمة الفيزياء الكلاسيكية" التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر .

وبمجرد ذكر هذه العبارة أو الجملة : "أزمة الفيزياء الكلاسيكية" يتبادر إلى الذهن سؤال :

هل هذه الأزمة تتعلق بالعلم أم بالفلسفة ؟

فى واقع الأمر أن هذه الأزمة ظهرت داخل نطاق العلوم الطبيعية. أى نشأت وظهرت فى مجال العلوم الفيزيائية. وهنا يبرز سؤال :

ما شأننا نحن ، أى ما شأن الفلسفة ، بهذه الأزمة طالما أن هذه الأزمة تتعلق بالعلم لا بالفلسفة ؟!

فى الحقيقة أن هذا السؤال هو فى واقع الأمر سؤال غير مشروع. لأن الفلسفة الحقة لا تنفصل عن العلم السائد ولا تتنكر له ، لأن العلم السائد فى عصر ما يؤثر تأثيراً عميقاً على نظرية المعرفة فى ذلك العصر. وأى تغير جذرى فى العلم يتبعه رد فعل فى الفلسفة.

فعلى الرغم من أن أزمة الفيزياء الكلاسيكية قد حدثت فى مجال العلم، فإن هذه الأزمة قد ألقت بظلالها على الفلسفة ، فقام الفلاسفة بتخريج النتائج والدلالات الفلسفية لهذه الأزمة. وصاغوا نظرياتهم الفلسفية على ضوء هذه النتائج وهذه الدلالات.

ما معنى هذا ؟

معناه أن هناك علاقة تأثير وتأثر بين الفلسفة والعلم ، وهذه النتيجة هى

من أهم النتائج التى انتبه إليها الفلاسفة والعلماء معاً منذ مطلع القرن العشرين وحتى اليوم.

ولكن ما لنا نقفز هكذا إلى النتائج قبل عرض وبسط المقدمات ؟!

دعونا نبدأ من البداية .

والبداية فى تصورى تتمثل فى توضيح بعض المفاهيم والمصطلحات التى تساعدنا على أن نفهم المقصود بأزمة الفيزياء الكلاسيكية فهماً صحيحاً.

- علينا أن نعرف أولاً متى وكيف انفصلت العلوم الفيزيائية عن الفلسفة؟
- وما الفرق بين طبيعة العلوم الفيزيائية وطبيعة العلوم الرياضية؟
- وعلينا أن نوضح الفرق بين المنهج المتبع فى العلوم الفيزيائية الذى هو الاستقراء. والمنهج المتبع فى العلوم الرياضية الذى هو الاستنباط.
- وأن نميز داخل العلوم الرياضية نفسها بين نوعين من الرياضيات : الرياضة البحتة والرياضة التطبيقية .
- كما علينا أن نوضح ما المقصود بالفيزياء الكلاسيكية ، هل هى نظريات نيوتن أم شيءٌ آخر غيرها ؟
- ومتى وكيف ظهرت أزمة الفيزياء الكلاسيكية ؟
- ومتى وكيف تم تجاوز هذه الأزمة ؟
- وما هو الدور الذى لعبته العلوم الرياضية فى فض هذه الأزمة ؟
- وهل أدى تطور العلوم الفيزيائية إلى إلغاء الفيزياء الكلاسيكية ؟
- وما هى النتائج والدلالات الفلسفية التى خرج بها الفلاسفة والعلماء من هذه

الأزمة ؟

علامات استفهام كثيرة وعديدة ، تحتاج إلى إجابات دقيقة ومحددة. وفى محاولة من جانبنا للإجابة عن هذه التساؤلات نقول.

إن العلاقة بين الفلسفة والعلم ، قديمة قدم التفكير الإنسانى. فمنذ فجر الفلسفة اليونانية ارتبطت العلوم المختلفة بالفلسفة ارتباط الأبناء بالأم، ولم يكن هناك تمييزاً واضحاً بين ما نسميه "علماً" وما نقول عنه "فلسفة". إذ لم تكن هناك فوارق بين العلوم التى تقوم على الملاحظة والتجربة، وتلك التى تستند إلى النظر العقلى المجرد. فلقد كانت كلمة "الفلسفة"- عند اليونانيين القدماء - تعنى مجموعة المعارف البشرية ، وكانت كلمة "علم" تدل على المعرفة إطلاقاً سواء أكانت مستمدة من الحواس أم من العقل ومبادئه. وخير مثال على ذلك ، فلسفة أرسطو (384 - 322 ق م) التى احتوت كل معارف عصرها .

ظل هذا الارتباط - بين الفلسفة والعلم - وثيقاً فى العصور الوسطى أيضاً ، ومرجع السبب فى ذلك هو سيادة فلسفة أرسطو وغلبة الاتجاه الدينى على فلاسفة تلك العصور .

أما فى العصر الحديث ، فقد بدأ العلم ينفصل تدريجياً على يد رواد البحث العلمى التجريبى من أمثال كبلر وجاليليو ونيوتن وغيرهم. فلجأ هؤلاء العلماء إلى دراسة الظواهر الطبيعية عن طريق الملاحظة والتجربة واختراع الأجهزة والآلات التى تمكنهم من فهم وتفسير هذه الظواهر. وكان لابد للتطورات العلمية من أن تؤدى إلى استقلال العلوم الجزئية عن الفلسفة موضوعاً ومنهجاً ، فأخذ كل علم يبحث فى جزء محدد من العالَم ، يقتطعه لنفسه ليصل فيه إلى القوانين التى تسير الظواهر وفقاً لها .

بدأ العلم إذن ينفصل عن الفلسفة فى العصر الحديث حين ظهرت

التفرقة بين العلوم التى تقوم على الملاحظة والتجربة ، وبين العلوم التى تعتمد على أساساً على العقل والفكر المجرد .

ومن ناحية أخرى ، ظهرت فى العصر الحديث التفرقة بين العلوم الصورية [وهى الرياضة البحتة والمنطق الصورى] وبين العلوم التجريبية أو الطبيعية أو الفيزيائية وكلها مسميات مختلفة لشىء واحد ، هو العلوم التى تعتمد على الملاحظة والتجربة والتى يتوقف صدقها على مدى مطابقتها للواقع.

ظهرت فى العصر الحديث إذن التفرقة بين العلوم الصورية والعلوم التجريبية. وغالباً ما يُوصف الاختلاف بين العلم الصورى والعلم التجريبى، بأنه اختلاف بين العلم الاستنباطى والعلم الاستقرائى. على أساس أن المنهج المتبع فى العلوم الصورية هو المنهج الاستنباطى ، فى حين أن المنهج المتبع فى العلوم التجريبية هو المنهج الاستقرائى .

وسنحاول الآن أن نقدم تعريفاً عاماً للفرق بين الاستدلال الاستنباطى الذى يعتمد على الاستنباط كمنهج ، والاستدلال الاستقرائى الذى يعتمد على الاستقراء كمنهج .

ووفقاً للتعريف التقليدى فإن الاستنباط هو عملية عقلية ننتقل فيها من الكلى إلى الجزئى. أما الاستقراء فهو عكس الاستنباط. إذ ننتقل فيه من الجزئى إلى الكلى .

ولنبدأ بالاستدلال الاستنباطى :

الاستدلال الاستنباطى – كما ذكرنا – ننتقل فيه من الكلى إلى الجزئى، ولذا فإن نتيجة الاستدلال الاستنباطى تكون متضمنة فى المقدمات. فإذا كنا قد سلمنا بصحة المقدمات فلابد أن نسلم بصحة النتيجة ، طالما استُنْبِطَت هذه

النتيجة استنباطاً صحيحاً من المقدمات .

فإذا قلنا مثلاً : إن أ > ب ، ب > حـ ∴ أ > حـ

هذا نموذج للاستدلال الاستنباطى ، نتيجة هذا الاستدلال صادقة صدقاً ضرورياً ومطلقاً ، لأن نتيجته لا تحتوى على شىء لم يكن موجوداً فى المقدمات. ما جاءت به النتيجة كان متضمناً فى المقدمات ، ولذا فإن صدق نتيجة الاستدلال الاستنباطى لا يعتمد على مطابقة النتيجة أو عدم مطابقتها للواقع ، وإنما معيار الصدق هو الاتساق بين النتيجة والمقدمات. فليس مهماً ماذا تكون أ أو ماذا تكون ب أو حـ فى عالَم الواقع. فحتى لو لم يكن هناك شىء على الإطلاق فى عالَم الواقع ، فإن نتيجة الاستدلال الاستنباطى تظل ، مع ذلك ، صادقة. ومن هنا قلنا إن صدق نتيجة الاستدلال الاستنباطى ضرورى ومطلق .

ومن هنا أيضاً يتصف الاستدلال الاستنباطى بأنه تحصيل حاصل وبأنه فارغ. ووصف الاستدلال الاستنباطى بأنه فارغ ، لا يعنى أننا نصفه بصفة ذميمة ، إذ إن القيمة الحقيقية للاستنباط ترجع إلى كونه فارغاً ، ذلك لأن كون الاستنباط لا يضيف أى شىء إلى المقدمات ، هو ذاته السبب الذى يتيح على الدوام تطبيقه دون خوف من أن يؤدى ذلك إلى الإخفاق.

والاستنباط هو منهج العلوم الرياضية – كما سبق أن ذكرنا – إذ إن الرياضيات وعلى وجه التحديد الرياضة البحتة هى نسق استنباطى فرضى مستقل عن التجربة ومعطياتها. وكل ما نحتاج إليه – فى مجال الرياضة البحتة – هو أن نستنبط النظريات [أو المبرهنات] بطريقة صحيحة من المقدمات التى بدأ بها العالِم الرياضى بحيث يجئ النسق الرياضى خالياً من التناقض .

ونتيجةً لهذا الفهم لطبيعة الرياضيات أصبح من الممكن بناء أكثر من

نسق رياضى. ففى مجال الهندسة مثلاً ، نجد أن عالِم الهندسة ليس ملزماً بأن يبدأ بفروض معينة لابد منها دون غيرها ، بل هو حر فى افتراض ما يشاء من بديهيات ومسلمات ومصادرات. ويطلب منا العالِم أن نسلم بهذه البديهيات والمصادرات تسليماً لا يستند إلى برهان. على شرط أن يلتزم هذا العالِم بما افترضه من فروض ، فلا يقوم فى أى خطوة من خطوات البرهنة بالتخلى عن هذه البديهيات والمسلمات والمصادرات التى وضعها وألا يقوم بتعديلها أو تغييرها .

فمن حق عالِم الهندسة مثلاً أن يفترض أن المكان مستو ، ثم يبنى نظرياته على هذا الأساس كما فعل أقليدس. أو أن يفترض أن المكان على شكل السطح الداخلى للإسطوانة ثم يبنى نظرياته على هذا الأساس كما فعل "لوباشوفسكى" ، أو أن يفترض أن المكان على شكل السطح الخارجى للكرة، كما فعل "ريمان" ، ثم يبنى نظرياته على هذا الأساس.

وهكذا ظهرت كثرة من الهندسات. وكلها صحيحة من الوجهة المنطقية. عرفنا إذن طبيعة الاستدلال الاستنباطى ، وأن الاستنباط هو منهج العلوم الرياضية. كما عرفنا أن هناك كثرة من الهندسات. هندسة أقليدس وهندسات أخرى لا أقليدية هى هندسة "لوباشوفسكى" وهندسة "ريمان".

ولنتحدث الآن عن الاستدلال الاستقرائى كى نميز بينه وبين الاستدلال الاستنباطى من ناحية ، وكى نمهد بهذا الحديث للدخول إلى صميم الفيزياء الكلاسيكية من ناحية أخرى.

الاستدلال الاستقرائى ، كما ذكرنا ، هو الذى ننتقل فيه من الجزئى إلى الكلى. فمن خلال الاستدلال الاستقرائى ننتقل من مقدمات جزئية إلى نتيجة أعم منها انتقالاً يضيف إلى تلك المقدمات ما لم يرد بها. إذ تشير نتيجة

الاستدلال الاستقرائى إلى المستقبل مع أن المقدمات كانت منحصرة فى جزئيات وقعت لنا فى لحظات ماضية. فمثلاً ، يقول العلماء : "إن الحديد يتمدد بالحرارة" ، هذا القول هو نتيجة استقراء. وهو حكم عام ، إنه تعميم علمى ، يصدق على كل الحديد. ما وُجِدَ منه وما سوف يُوجد .

كيف توصل العلماء إلى هذا التعميم ؟

هل قام العلماء بإجراء تجارب على كل قطع الحديد الموجودة فى العالَم، فوجدوا أنها كلها تتمدد بالحرارة ؟

هل قام العلماء بإحصاء كل قطعة حديد ، ولم يتركوا قطعةً واحدة من الحديد فى العالَم إلا وأجروا عليها التجارب ، ثم وجدوا بعد كل هذه التجارب أن الحديد يتمدد بالحرارة ؟

هل فعلوا ذلك ؟

فى الواقع أن العلماء لم يفعلوا ذلك. ولم يكن فى وسعهم أن يفعلوا.

ولكن السؤال مازال قائماً : كيف توصل العلماء إذن إلى هذا التعميم القائل : إن كل الحديد يتمدد بالحرارة ؟

لقد توصل العلماء إلى النتيجة الاستقرائية القائلة : "بأن كل الحديد يتمدد بالحرارة" بعد أن قاموا بإجراء التجارب على عدد معين من قطع الحديد ، فلاحظوا أن قطعاً كثيرة من الحديد تتمدد بالحرارة ، ولم يحدث أن أُجْرِيَت تجربة على قطعة حديد إلا وتمددت بالحرارة. لذا قام العلماء بتعميم هذا الحكم ليشمل لا القطع التى خضعت للتجربة فقط ، بل ليشمل كل الحديد. أى أن النتيجة أعم وأشمل من المقدمات. إذ إن المقدمات تقول :

إن القطعة رقم (١) من الحديد تتمدد بالحرارة

إن القطعة رقم (٢) من الحديد تتمدد بالحرارة

إن القطعة رقم (٣) من الحديد تتمدد بالحرارة

إن القطعة رقم (٤) من الحديد تتمدد بالحرارة

إن القطعة رقم (ن) من الحديد تتمدد بالحرارة

حيث (ن) هو عدد قطع الحديد التى خضعت للتجربة ووُجِدَ أنها تتمدد بالحرارة .

هذا ما تقوله المقدمات ، وكما هو واضح فإن (ن) عدد محدود مهما كبر ، فى حين أن النتيجة تقول "إن كل الحديد يتمدد بالحرارة". أى أن المقدمات جزئية فى حين أن النتيجة كلية .

العلماء أصدروا حكماً بتمدد الحديد ، لا ليقتصر هذا الحكم على قطع الحديد التى خضعت للتجربة فقط ، بل ليشمل هذا الحكم كل أنواع الحديد ما خضع منها للتجربة وما لم يخضع ، بل وليشمل هذا الحكم ما سيظهر من حديد فى المستقبل.

ومن الواضح أن نتيجة الاستدلال الاستقرائى تفترض مبدأ إطراد الحوادث ، أى تفترض أن المستقبل سوف يأتى على غرار الحاضر والماضى. كما أنها تفترض مبدأ العلية ، أى تفترض أن العلاقة بين العلة والمعلول هى علاقة ضرورية ، فإذا ظهرت العلة فلابد أن يظهر المعلول.

وهنا يتساءل الفيلسوف الاسكتلندى "ديفيد هيوم" David Hume (1711 – 1776) عن السند المنطقى الذى يُبيح لنا مثل هذه القفزة. ما هو

المبرر المنطقى الذى يسمح لنا بالانتقال من الحكم على ظواهر شاهدناها فى الحاضر والماضى إلى الحكم على ظواهر مازالت فى طى المستقبل؟ أى ما هو الأساس المنطقى الذى يجعلنا نقفز مما ندركه إلى ما لا ندركه ؟ ولقد أدت صعوبة هذا السؤال إلى خلق ما يُطلق عليه فلاسفة العلم اسم "مشكلة الاستقراء".

إن الاستقراء كما تحدثنا عنه حتى الآن ، هو الاستقراء كما تصوره كل من فرنسيس بيكون Bacon, F.(١٥٦١ - ١٦٢٦) وجون ستوارت مل Mill, J. S. (١٨٠٦ - ١٨٧٣).

ويسمى الاستقراء فى هذه الحالة باسم "الاستقراء التقليدى" أو "الاستقراء التعدادى". ولقد جرت العادة على ترتيب خطوات "الاستقراء التقليدى" على الوجه التالى :

الملاحظة ثم وضع الفروض ، ثم التحقق عن طريق التجربة من صحة الفروض لنصل فى النهاية إلى القانون العلمى .

ويُعَد المثال الذى قدمناه عن "تمدد الحديد بالحرارة" نموذجًا "للاستقراء التقليدى" ، ففى البداية لُوحظ أن قضبان الحديد يزداد طولُها إذا تعرضت للحرارة ، فافترض العلماء أن الحديد يتمدد بالحرارة ، ثم أُجْرِيَت التجارب للتحقق من صحة هذا الفرض ، وعندما أثبتت التجارب أن هذا الفرض صحيح ، تم تعميمه بوصفه قانوناً علمياً.

هذا هو منهج الاستقراء التقليدى ، كما تصوره فرنسيس بيكون وجون ستيورت مل.

غير أن التطورات العلمية التى ظهرت فى أواخر القرن السابع عشر عندما وضع نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) نظريته عن تجاذب الكتل ، أوضحت

أن المنهج الاستقرائى التقليدى لا يمكنه أن يفى بأغراض العلوم الحديثة ، كما أن الإنجاز العلمى الذى حققه نيوتن بنظريته فى الجاذبية ، أدى إلى إعادة النظر فى المنهج الاستنباطى الرياضى ، الذى كان بعيداً بطبيعته عن العلوم التجريبية ، مما سمح باستخدام المنهج الاستنباطى جنباً إلى جنب مع المنهج الاستقرائى فى العلوم التجريبية. فلم يعد استخدام المنهج الاستنباطى مقتصراً على الرياضة البحتة والمنطق ، بل استخدم نيوتن المنهج الاستنباطى فى العلوم الفيزيائية – كما سنعرف بعد قليل – ولقد ساهم المنهج الاستنباطى فى اختبار الفروض التجريبية ، وبخاصةٍ إذا كانت هذه الفروض نظرية ، كالفروض الخاصة بنظرية الجاذبية مثلاً.

وعلى ذلك فإن المنهج الذى استخدمه نيوتن يجمع بين الاستقراء والاستنباط ، ولقد ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية.

ويمكننا أن نوجز ملامح المنهج العلمى الذى استخدمه نيوتن على النحو الآتى :

١- يبدأ هذا المنهج بوضع فرض رياضى صورى.

٢- رتب نيوتن على هذا الفرض النتائج التى يؤدى إليها. وذلك باستخدام المنهج الاستنباطى .

٣- تحقق نيوتن – والعلماء من بعده – من صحة هذه النتائج عن طريق الملاحظة والتجربة.

وسوف تتضح لنا أبعاد هذا المنهج على نحو أوضح من خلال قانون تجاذب الكتل الذى قال به نيوتن ، ولقد قام نيوتن بعرض هذا القانون فى كتابه الذى شاء أن يسميه باسم "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية". وهو كتاب فى

الميكانيكا. وعلينا أن نلاحظ أن نيوتن قد أطلق على كتابه هذا الذى صدر عام ١٦٨٧ اسم "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" ، ولم يشأ أن يسميه "المبادئ الرياضية للعلم الطبيعى". فقد استخدم كلمة "الفلسفة" فى عنوان كتابه ، ولم يستخدم كلمة "العلم". ومع هذا فإن تاريخ صدور هذا الكتاب (١٦٨٧) أصبح هو التاريخ الذى يُؤَرَّخ به لانفصال العلم الطبيعى عن الفلسفة.

قام نيوتن فى هذا الكتاب بعرض القانون الذى توصل إليه ، وهو قانون تجاذب الكتل ، والذى يشيع إطلاق اسم قانون الجاذبية عليه. ويتخذ هذا القانون صورة معادلة رياضية بسيطة إلى حد ما ، ويقول هذا القانون :

"إن كل جسم يجذب كل جسم آخر بقوة تتناسب مع كتلته تناسباً طردياً ، وتتناسب هذه القوة مع مربع المسافة بينه وبين الجسم الآخر تناسباً عكسياً".

ويعبر هذا القانون – من الوجهة المنطقية – عن فرض صورى لا يمكن تحقيقه بطريقة مباشرة. إذ ليس فى وسعنا إدراك قوة الجاذبية إدراكاً حسياً بين الأجسام التى نلاحظها. ولن يكون ذلك فى وسعنا أبداً. إن كل ما ندركه عن طريق الحواس هو حركة الأشياء ، كسقوط الأحجار أو الأجسام، ولكننا لا ندرك قوة الجاذبية .

وعلى ذلك فإن البرهان التجريبى على القانون المسمى بقانون الجاذبية يتم بطريقة غير مباشرة.

والجدير بالذكر أن المبادئ الأساسية لنظرية نيوتن الديناميكية ، قد صيغت فيما يسمى بقوانين نيوتن فى الحركة ، وهى :

١– "إن كل جسم يستمر على الحالة التى هو عليها من سكون أو حركة منتظمة

فى خط مستقيم ، ما لم يتعرض لقوةٍ ما تؤدى إلى تغيير تلك الحالة".

٢- "إن التغير فى الحركة يتناسب تناسباً طردياً مع القوة الواقعة على جسمٍ ما ، ويتخذ التغير الاتجاه نفسه الذى أحدثته هذه القوة".

٣- "يوجد دائماً لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه".

ويرى بعض فلاسفة العلم (وليم نيل Kneale, W.) أن هذه القضايا الثلاث ليست قوانين بالمعنى المألوف ، ولكنها بالأحرى مصادرات أو مسلمات تحدد تعريف فكرة القوة وارتباطها بالحركة. إن كل قضية من هذه القضايا لا يمكن اختبارها بطريقة مباشرة. ولكن النظرية ككل يمكن التحقق من صدق نتائجها بطريقة تجريبية .

وعلى ذلك فقد أدرك نيوتن أن نجاح نظريته يتوقف على التأييد المستمد من تحقيق نتائجها. وكان عليه ، من أجل استخلاص هذه النتائج، أن يبتدع منهجاً رياضياً جديداً ، هو حساب التفاضل [اكتشف ليبنتس Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦) حساب التفاضل مستقلاً عن نيوتن].

المهم أن نيوتن لم يكتف باكتشاف حساب التفاضل ، وإنما أراد الوصول إلى دليل كمى مبنى على الملاحظة. بل رغب فى اختبار النتائج التى توصل إليها ، فقام بملاحظة وتتبع حركة القمر. أدرك نيوتن من ملاحظته لحركة القمر أن قوة الجاذبية التى تصورها "جاليليو" Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢) فى نظريته عن سقوط الأجسام ، لها دلالة تتجاوز نطاق الكرة الأرضية ، وأن قوة التجاذب تمثل خاصية لكل كتلة ، بل وتحدد مسار الكواكب خلال فضاء الكون. لقد تصور جاليليو أن قوة الجاذبية تقتصر على الأجسام التى على سطح الأرض ، أما نيوتن ، فقد افترض أن قوة التجاذب لا تقتصر على الأجسام والكتل التى على سطح الأرض بل تمتد لتشمل كل كتلة

فى الكون ، وبالتالى فإن قوة التجاذب هى التى تحدد مسار الكواكب خلال الفضاء الكونى.

تتابعت الاختبارات القائمة على الملاحظة والمؤيدة لنظرية نيوتن. وكان من أبرز هذه الاختبارات ما قام به الرياضى الفرنسى "لوفرييه" Leverrier ، وكذلك الفلكى الإنجليزى "آدامز" Adams حيث تنبأ كل منهما على نحو مستقل عن الآخر ، بوجود كوكب مجهول حتى ذلك الحين ، هو الكوكب نبتون Neptune ، وذلك على أساس حسابات اتضح منها أن الانحرافات الملاحظة فى بعض الكواكب لابد أن تكون راجعة إلى هذا الكوكب الجديد. وعندما وجه علماء الفلك التلسكوب إلى تلك المنطقة من السماء ، التى كان "لوفرييه" قد حسبها ، رأوا بقعة ضئيلة يتغير موقعها تغيراً بسيطاً من ليلة إلى أخرى ، وكانت هذه البقعة هى الكوكب الذى سمى بعد اكتشافه بكوكب نبتون. وهكذا اكتُشِفَ الكوكب نبتون عام ١٨٤٦. ويرجع الفضل الحقيقى لاكتشافه إلى قوانين نيوتن. إذ إن قوانين "نيوتن" تتنبأ بدقة بمستقبل النظام الشمسى شرط أن نعرف بالضبط مواقع الكواكب بالنسبة إلى الشمس فى لحظة معينة .

ووفقاً لقوانين "نيوتن" فإن التغيرات التى تحدث فى العالَم عند آية لحظة تعتمد فقط على حالة العالَم عند تلك اللحظة ، والحالة تُحدَّد بمواضع وسرعات الأجسام. فتغيرات المواضع تحددها السرعات ، وتغير السرعات تحددها القوى ، والقوى بدورها محددة بالمواضع. فإذا أمكن معرفة حالة العالم فى أية لحظة ، استطعنا أن نتنبأ بالسلوك والمعدل الذى سوف تتغير به هذه الحالة ، وإذا عرفنا هذا يمكننا التنبؤ بالحالة فى اللحظة التالية ، ثم نعتمد على ذلك كمرحلة انتقالية ، فنتنبأ بالحالة فى لحظة بعدها ، وهكذا بغير حدود.

ولقد عبر عن هذا المعنى العالِم الفرنسى "لابلاس" Laplace

(1749- 1827) فى تشبيهه المشهور ، الذى قال فيه :

"إنه لو استطاع عقل ما أن يعلم فى لحظة معينة جميع القوى التى تحرك الطبيعة ، ومواقع كل كائن من الكائنات التى تتكون منها ، ولو كان ذلك العقل من السعة بحيث يستطيع إخضاع هذه المعطيات للتحليل ، لاستطاع أن يعبر بصيغة واحدة عن حركة أكبر أجسام الكون وعن حركة أخف الذرات وزناً ، ولكان علمه بكل شىء علماً أكيداً ، ولأصبح المستقبل والماضى ماثلين أمام ناظريه كالحاضر تماماً".

هذه الحتمية الفيزيائية هى أهم نتيجة لفيزياء نيوتن ، وهى تجعل الكون أشبه بساعة ملآنة تمر آلياً بمراحلها المختلفة. تلك هى النتيجة التى يؤدى إليها علم فيزيائى يتنبأ بوجود كوكب بقدر من الدقة يكفى المرء معه أن يوجه منظاره نحو هذا الكوكب ليراه. وهذا ما حدث كما رأينا عندما اكتُشِفَ كوكب نبتون.

والواقع أن المنهج الرياضى هو الذى أكسب فيزياء نيوتن (وبالتالى الفيزياء الكلاسيكية) قدرتها على التنبؤ. فالفيزياء الكلاسيكية ما هى إلا قوانين نيوتن مضافاً إليها كل الاكتشافات التى ظهرت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى جاءت مؤيدة لقوانين نيوتن ومتسقة معها.

وأوضح تعبير عن تطبيق المنهج الرياضى هو مفهوم السببية كما تطور نتيجةً للفيزياء الكلاسيكية ، أى لفيزياء نيوتن ، مما أدى إلى تفسير العالَم الطبيعى وفقاً لنظام من العلية الذاتية التى تستبعد تأثير أية قوى من خارج العالَم. وعلى ذلك فإن الكون الذى تحرك فى لحظة ما سوف يظل محتفظاً بحركته إلى الأبد ما لم تحدث معجزة تؤدى إلى توقف هذه الحركة .

ولما كان من الممكن التعبير عن القوانين الفيزيائية فى صورة معادلات رياضية ، فقد بدا كأن من الممكن تحويل الضرورة الفيزيائية إلى ضرورة رياضية.

ويمكن أن نقول باختصار إنه منذ أن نشر نيوتن كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" عام ١٦٨٧ ، مرت نظريته بتطورات تالية امتدت أكثر من قرنين من الزمان. وكانت كلها تنطوى على تأكيد متجدد لهذه النظرية. مما أوحى بأن الفيزياء الكلاسيكية قد وصلت إلى مرحلة نهائية ليس لها ما بعدها.

إذا كان الأمر على هذا النحو. فكيف إذن تعرضت هذه الفيزياء للأزمة ، ومتى ظهرت هذه الأزمة ؟

فى الواقع أن **أزمة الفيزياء الكلاسيكية** قد ظهرت قرب نهاية القرن التاسع عشر. وذلك عندما اصطدمت هذه الفيزياء بظواهر وعلاقات فى التجربة لا تتفق وصدقها النظرى. إذ أبت بعض الحقائق الدخول ضمن الأطر المرسومة لها فى ميكانيكا "نيوتن". واتضح تدريجياً أن هذه الأزمة تعنى سقوط فكرة التفسير الحتمى (التحديد المسبق) للعالَم والمعروفة علمياً باسم الحتمية الميكانيكية ، والتى مؤداها أن كل مستقبل العالَم متضمن فى هيئته عند خلقه، وأن ما نسميه تطوراً ما هو إلا كشف عما موجود بالفعل.

كانت الفيزياء الكلاسيكية تفى بالغرض تماماً عندما كانت حدود الفيزياء لا تتعدى الميكانيكا فحسب. غير أنه نتيجة للتقدم العلمى فى مجالى الكهربائية والمغناطيسية ، ظهرت أمام العلماء ظواهر جديدة بحاجة إلى تعليل. كما أنه نتيجة لتقدم الفيزياء الذرية ، ودراسة الظواهر الإشعاعية ظهرت صعوبات عديدة عجزت الفيزياء الكلاسيكية عن إيجاد تفسير علمى لها.

وأخذت التناقضات والصعوبات تظهر فى الدراسات الفيزيائية على المستويين النظرى والتجريبى ، وكانت أهم التناقضات والمشكلات ما هو ناتج عن مبادئ وفروض تحتاج إلى تحقيق تجريبى ، ومن أمثلة هذه المبادئ والفروض التى تحتاج إلى تحقيق تجريبى ، ما يلى :-

١- افترضت فيزياء نيوتن وجود مكان مطلق لتفسير حركة الأجسام استناداً إلى هندسة إقليدية تنظر إلى المكان بوصفه ثلاثى الأبعاد. وتفترض فيزياء نيوتن أيضاً وجود زمان مطلق مستقل عن الأجسام ينساب على نمط واحد لا علاقة له بالأشياء الخارجية.

٢- افترضت الفيزياء الكلاسيكية وجود وسط أُطلق عليه اسم "الأثير" Ether تنتقل خلاله الموجات الكهرومغناطيسية ، وكان لهذا الأثير خصائص عجيبة تماماً ، حتى من وجهة نظر الفيزياء الكلاسيكية نفسها ، فهو مادة تملأ الكون وتتميز بكونها مرنة وصلبة .

٣- افترضت الفيزياء الكلاسيكية نظريتين لتفسير الظواهر الضوئية : الأولى لنيوتن ، وهى تفترض أن الضوء يسير فى خطوط مستقيمة ويتألف من جسيمات تخضع لقوانين ميكانيكية.

والنظرية الثانية لهويجنز Hoygens ، وهى تفترض أن الضوء يتألف من موجات ، وتعرف بالنظرية الموجية للضوء.

ولم تستطع نظرية نيوتن أو نظرية هويجنز تفسير الظواهر الكهروضوئية.

وعلى ذلك ، فقد اتضح أن القوانين الهامة للفيزياء الكلاسيكية لا تنطبق إلا على جانب معين من الظواهر ، وعلى شكل معين من العلاقات ، ويتحدد صدقها العلمى بحدود هذه الظواهر وهذه العلاقات. أما بالنسبة للأبعاد الفلكية

وما دون المجهرية ، فكان لابد من الاستعاضة عن هذه القوانين الكلاسيكية بقوانين للفيزياء الحديثة. وأدى ذلك إلى اتساع المجال لظهور نظريتين جديدتين هما : نظرية النسبية التى قال بها أينشتين، ونظرية الكوانتم التى قال بها ماكس بلانك. ظهرت نظرية النسبية الخاصة عام ١٩٠٥ ، وظهرت نظرية النسبية العامة ١٩١٥.

أما ماكس بلانك فقد وضع نظريته عام ١٩٠٠. وتُعَد نظريتى النسبية والكوانتم هما الأساس الفكرى لتطور علم الفيزياء الحديث. ولن يتسع المجال هنا لعرض هاتين النظريتين. وسنكتفى بالتأكيد على أن أزمة الفيزياء الكلاسيكية ليست إلا عجز منهجها وقوانينها عن استيعاب ظواهر طبيعية جديدة فى عالَم التجربة الخارجية ، وأن قوانينها ما تزال صحيحة فى حدود ظواهر معينة. وهذا معناه أن الفيزياء الحديثة ليست استبعاداً لكل قوانين الفيزياء الكلاسيكية أو إهداراً لقيم صدقها ، وإن كل ما هنالك ، هو أن قوانين الفيزياء الحديثة امتدت إلى مجالات تفشل الفيزياء الكلاسيكية فى خوض غمارها.

الفيزياء الكلاسيكية لا تتضمن إذن خطأً فى بنائها العلمى ، وإنما الخطأ كل الخطأ يكمن فى محاولة تحديد التجربة الخارجية بحدود قوانين الفيزياء الكلاسيكية ، إن الخطأ كل الخطأ يكمن فى محاولة اتخاذ هذه الفيزياء الكلاسيكية أساساً لنظرة شاملة للعالَم ، ولتشييد فلسفة كونية عامة. ذلك لأن هذه الفيزياء وقفت عند حدود ظواهر وعلاقات معينة ولم تتعداها.

تطبيق الشريعة بين السياسة والدين

نود أن نؤكد بادئ ذى بدء على أن الدعوة إلى تطبيق الشريعة ، ليست – كما يتوهم الكثيرون – دعوة دينية خالصة ، وإنما لها بعد سياسى هام يتمثل فى السعى نحو الوصول إلى الحكم ، وذلك بإقامة الحكومة الإسلامية. إن السعى نحو الوصول إلى الحكم، فى ظل نظام تعدد الأحزاب ، أمر مشروع ، وإنما يكمن الخطأ والخطر فى إقحام الدين فى الأمور السياسية. ومحاولة – بعض الداعين إلى تطبيق الشريعة – الإيهام بأنها دعوة دينية خالصة لا تبتغى إلا وجه الله وتنفيذ أوامره ، ومن هنا حاولت بعض الجماعات الدينية التأكيد على وجود "هوية" Identity بين الإسلام وتطبيق الشريعة ، مدخلين فى روع الناس أن الدعوة إلى تطبيق الشريعة هى دعوة إلى الإسلام ، وأن رفض هذه الدعوة هو مروق عن الإسلام.

والملفت للنظر أن عدداً من الكتَّاب وبعض القيادات السياسية داخل الحكومة وخارجها انساق وراء هذا الوهم – رغم معارضته الصريحة للجماعات الدينية المتطرفة – وظن أن معارضة تطبيق الشريعة تعنى اتهامه بالوقوف فى وجه الإسلام. ومن هنا جاء الموقف الغريب لهؤلاء الساسة والكتَّاب ، والمتمثل أحياناً فى تملق التيار الدينى بإعلان تأييد الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، والاكتفاء – فى أغلب الأحيان – بنقد التيار الدينى المتطرف دون الاقتراب من قضية تطبيق الشريعة لمعالجتها بطريقة موضوعية.

إن إحجام الكثير من المفكرين والكتَّاب عن تناول مسألة تطبيق الشريعة لبيان ما لها وما عليها ، بالامتناع عن مناقشة هذه الموضوع أصلاً، أدى – ضمن مجموعة أخرى من الأسباب لها أهميتها ولا يتسع المجال هنا لعرضها–

إلى وقوع الشباب فريسة سهلة لإغواءات الجماعات الدينية المتطرفة .

وإذا كانت الدعوة إلى تطبيق الشريعة تلقى استجابة من قبل قطاع كبير من الشعب المصرى ، فإن أحد أشكال هذه الاستجابة يرجع إلى الأمل فى أن يؤدى إقامة حد الزنا وتعميم ارتداء الحجاب إلى حماية المجتمع من الرذائل ، تحديدًا ، بمعناها الجنسى. وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل أدى تطبيق الشريعة فى الأقطار التى قامت بتطبيقها بالفعل إلى القضاء على الرذائل ؟ إن نظرة متفحصة إلى طبيعة ما يدور تحت ستار فى هذه المجتمعات تؤكد لنا أن الأمل فى أن يؤدى تطبيق الشريعة إلى القضاء على الرذائل بمعناها الجنسى ، هو مجرد أمل مخادع. ويرجع السبب فى ذلك ، إلى أننا وإن استطعنا أن نمنع عوامل الغواية الآتية إلينا من الداخل ، فليس فى وسعنا أن نمنع ما يرد منها من الخارج ، وذلك لأن طبيعة تكوين العالَم الذى نعيش فيه اليوم ، اختلفت عما كانت عليه منذ قرون ، فلم يعد بالإمكان – بعد ثورة الاتصالات السلكية واللاسلكية التى تحققت فى هذا القرن – أن نعزل أنفسنا عما يحيط بنا ، إذ لم تعد الحدود السياسية للدول أسواراً صماء بقدر ما أصبحت موجات من الأثير تحمل نبض العالَم. لقد صار العالَم أشبه بقرية واحدة ، وعلى ذلك فإن أقصى ما يمكن أن تؤدى إليه إقامة الحدود فى هذا المجال هو العمل على تقهقر تلك الرذائل لتتم فى الخفاء على نحو أكثر حدة.

وهنا يبرز سؤال : هل الرذائل الأخلاقية تقتصر على الجنسية فحسب؟! من الملاحظ إننا فى مصر ، وفى سائر المجتمعات العربية ، نعطى للرذائل المتصلة بأمور الجنس حجماً هائلاً يكاد يلاشى ما عداها من رذائل ، مثل : الكذب والنفاق والتكاسل أو الإهمال فى أداء الواجب وعدم الوفاء بالعهد. فى حين أن مثل هذه الرذائل الأخيرة لا تقل من حيث نتائجها الضارة عن رذيلة كالزنا.

إن الأضرار الناجمة عن ارتكاب الزنا تحيط بمرتكبى هذه الجريمة وحدهم – وليس فى هذا إقلال من خطر هذه الجريمة – فى حين أن جريمة المنافقين من قادة الرأى مثلاً تفسد كثيراً من الشباب ، وتؤدى بهم إلى التخبط والضياع.

إن الدول التى طبقت الشريعة الإسلامية ، تعاقب الزناة وتقيم عليهم الحد ، فكم يا ترى عدد هؤلاء الذين تمت معاقبتهم بتهمة منافقة حكام تلك الدول ؟! إن ما نراه فى تلك الدول هو عكس ذلك تماماً ، إذ يتم التنكيل بكل من يقول ما يرى أنه الحق.

يبقى بعد ذلك أن نقول إن التفكير فى مشروع قومى يستنفذ طاقة الشباب فى تعمير البلاد وبنائها لهو أجدى فى صرف الشباب عن كل المثيرات الضارة التى ترد إلينا من الخارج والداخل على السواء.

obeikan.com

الفيلسوف .. والمرأة (*)

د. إمام

أود فى البداية أن أرحب بكم جميعاً ، وأن أشكركم على تفضلكم بالحضور للمشاركة فى هذه الندوة ، كما أود أن أخص بالشكر الجزيل أستاذنا الكبير الدكتور فؤاد زكريا الذى يزور الكويت الآن فى زيارة سريعة، ومشحونة بأعباء العمل ، وبواجبات مختلفة ، ومع ذلك لم يمانع أبداً فى أن يقتطع من وقته الثمين جزءاً لنراه ونسمعه فى هذه الندوة.

هذه الندوة تدور حول "الفيلسوف والمرأة" وهو موضوع فى ظنى مهم جداً ، لأنه سوف يلقى الضوء على وضع المرأة فى المجتمع العربى وهو من الموضوعات المهمة جداً. أود أن أقول إن العلاقة بين الفيلسوف والمرأة كانت علاقة سيئة ومضطربة على مدار التاريخ ، بدءاً من بداية الفلسفة ، فمع الفلسفة اليونانية ، نجد نماذج من عمالقة الفكر اليونانى ، سقراط ، وأفلاطون وأرسطو ، يقولون بأفكار سيئة عن المرأة مسايرةً لشعور الكراهية للمرأة السائد فى مجتمعهم. سقراط مثلاً تحدث عن زوجته إكزانثيب كثيراً جداً فى شىء من الاحتقار ويطردها من المحكمة، وحتى فى محاورة فيدون فى اليوم الأخير تُطرد بطريقة لا إنسانية ، وكثيراً ما كان يتحدث عن المرأة على أنها مصدر النكد ، أو أنها شر لابد منه كما يقال. من ذلك قوله : "أنا أقول لتلامذتى

(*) ندوة خاصة نُشِرَت بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد السادس والأربعين ، السنة الثانية عشرة ، شتاء ١٩٩٤ ، وقد شارك المؤلف فى هذه الندوة .

أدار هذه الندوة وأعد لها الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام رئيس قسم الفلسفة بجامعة الكويت ، وشارك فيها كل من الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا المفكر العربى ، والأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوى ، والأستاذ الدكتور غانم هنا ، والدكتور حسين على حسن ، والأستاذة ناهدة البقصمى ، من قسم الفلسفة بجامعة الكويت.

تزوجوا ، إما أن تكونوا سعداء أو تصبحوا فلاسفة مثلى" ، فكأنه كان فيلسوفاً نظراً لمشاكسة زوجته له. أفلاطون الذى بدا نصيراً فى بعض الأحيان للمرأة ، إننى اتصور على العكس إنه كان أيضاً مسايراً للجو العام فى كراهيته للمرأة ، هو لم يحقق المساواة ، ولكنى أعتقد اعتقاداً تاماً بما قاله جان جاك روسو عنه : "إن أفلاطون عندما ألغى الأسرة احتار فى وضع المرأة ، ماذا يفعل بها ؟ عندما أصبحت فى طبقة الحراس لا أسرة ولا ملكية ، فاحتار أفلاطون أين يضع المرأة ؟ فأحالها إلى رجل ، وجعلها تدخل الجيش وتتدرب مع الجنود ، ويجب ألا تخجل وهى تسير عارية بين الجنود.. إلخ". ثم عندما عاد أفلاطون إلى الملكية الخاصة، وإلى الأسرة فى محاورة "القوانين" فى نهاية حياته ، أعاد المرأة مرة أخرى إلى الحريم، وإلى وضعها المعتاد فى المجتمع الأثينى.

أرسطو أيضاً ، قائد الفكر اليونانى الكبير الذى كان له أثر هائل فى العصور الوسطى فيما بعد ، وضع نظرية تكاد تكون كل فلسفته مأخوذة منها، أو هى جوانب مكملة لنظريته عن المرأة ، يعنى أخذ من الميتافزيقا فكرة الصورة والهيولى ، وفكرة الوظيفة .. إلخ ووضع نظرية طبقها فى البيولوجيا، والأخلاق ، كما طبقها أيضاً فى السياسة ، وخرج منها بالقول إن المرأة ليست حيواناً عاقلاً ، وإنما هى أقل من الرجل فى القدرة العقلية. وأظن أن هذه الفكرة شائعة عندنا حتى الآن ، ودورها ووظيفتها الأساسية هى الإنجاب. حتى فى عملية الإنجاب ليس لها سوى تقديم دماء الطمث التى هى الهيولى لكى تأتى الحيوانات المنوية من الذكر وتضع الصورة على هذه المادة الخام ، والعجيب أن أرسطو يذكر أنه لو كان الجنين ذكراً فهذا نتيجة لقوة الرجل وفحولته ، ولو كان أنثى فهذا يعنى أن المرأة مسئولة لأنها لم تمزج دماء الطمث مزجاً جيداً ، أى لم تقم بإعداد المادة أو الهيولى إعداداً جيداً لكى تستقبل الصورة عليها ، فحدث الانحراف الذى نجم عنه ظهور الأنثى.

السؤال المطروح ، كيف نفسر هذه العلاقة المضطربة السيئة بين الفيلسوف والمرأة على مدار التاريخ ؟ وكيف نعلل هذه الظاهرة ؟ يعنى إذا أخذنا فئة الأدباء مثلاً ، لا نجد هذه العلاقة السيئة بهذا الحجم ، على الأقل، والفلاسفة أخطر لأنهم يقننون هذه الكراهية ، ويعطونها نظريات فلسفية قد تستمر وقد تؤثر فى الناس سنوات طويلة ، فأنا أسمح لنفسى بأن أترك التفسير لكى أسمع أولاً رأى أستاذنا الدكتور فؤاد.

د. فؤاد

شكراً ، وأنا أشكر الأخ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام على دعوته لى ، بلا شك أنه فى رحلتى هذه كان العنصر الفلسفى غائباً تماماً ، لهذا فقد رحبت على الفور بهذه الدعوة لكى أجدد بعض الخلايا الفلسفية فى الفترة التى لا توجد فيها سوى أعباء من نوعيات غير فلسفية على الإطلاق ، بالنسبة للمشكلة المطروحة ، أنا أعتبر أنها مشكلة مهمة ، وكما تعلمون فإن أساس أو دعائم المشكلة أُرْسِيَت فى العصر اليونانى كما طرحها الزميل الدكتور إمام الآن ، يعنى البدايات الأولى التى ظلت مستمرة بعد ذلك حتى الوقت المعاصر، وُضِعَت أسسها منذ العصر اليونانى ، ولذلك أنا أرى أننا نعطى العصر اليونانى بعض الأهمية الزائدة فى تعليل هذه الظاهرة ، طرأت فى بالى فكرة فيما يتعلق بالعصر اليونانى أريد أن أطرحها لعلكم توافقوننى عليها أو لا توافقون ، وهى أن المشكلة الأساسية فيما يتعلق بالمرأة عامةً ، وفى أى زمن من الأزمان ، هى مشكلة ما إذا كان الضعف الظاهر للمرأة هو جزء من طبيعتها أم أنه شىء فرضه المجتمع عليها ، فهذه هى المشكلة التى تسبب اضطهاداً للمرأة حتى اللحظة الراهنة ، مشكلة إننا فى الواقع لا نجد فيلسوفات، ولا نجد فنانات بالقدر الكافى ، ولا نجد موسيقيات مشهورات ، ولا نجد أدبيات إلا فى نطاق ضيق إذا ما قُورِنَت بالرجل ، ولكن هل هذا جزء من الطبيعة الأصلية للمرأة التى لا تستطيع المرأة أن

تتجاوزها ؟ أم أنه وضع فُرِضَ عليها بحكم أنها تُلقى عليها أعباء أكثر ألف مرة من تلك التى تُلقى على الرجل ، عليها تربية الأطفال والعناية بالمنزل ... إلخ.

وحتى عهد قريب كان الرجل لايزال هو مصدر الرزق فى الأسرة وهذا يعطيه قوة. فإذن هو فرض ومارس قوته على المرأة. فالضعف الذى تبدو عليه المرأة هو ضعف اجتماعى ، وليس ضعفاً طبيعياً ، إذا كانت هذه هى المشكلة ألسنا نذكر جميعاً أن مشكلة الطبيعة والعرف كانت إحدى المشكلات الأساسية فى الفلسفة اليونانية ؟ طبعاً ، وبالتالى انحازت مجموعة الفلاسفة الذين اشتُهِرَ عنهم اضطهاد المرأة واحتقارها إلى الفكرة القائلة إن القوانين والمؤسسات والأنظمة البشرية طبيعة وليست عرفاً ، وهاجموا السوفسطائيين لهذا السبب ، السوفسطائيون هوجموا على أساس أن جريمتهم الكبرى هى الاعتقاد أن الأخلاق والقيم والأنظمة الاجتماعية وكذا وكذا هو عرف قابل للتغيير ، سقراط وأفلاطون وأرسطو كانوا من أنصار الفريق الآخر ، فى رأيى أن المشكلة يمكن أن تثار بهذا الشكل ، إن وضع المرأة مرتبط بمشكلة الطبيعة والعرف ، إذا قمنا بحل هذه المشكلة حلاً صحيحاً ستنال المرأة حقوقها ، إذا كان الحل غير سليم ، وأنا اعتقد أن القوانين والمؤسسات والأنظمة والقيم جزء من الطبيعة غير قابل للتغيير ، هذا حل غير سليم ، فى هذه الحالة تُضطهد المرأة ، فهذا رأيى فيما يتعلق بالوضع أيام اليونان.

إذا أردت أن أفكر فى إطار تعليل الظاهرة بشكل عام ، فأريد أن أطرح ثلاثة عناصر للنقاش. العنصر الأول : هل من شأن الفلسفة ذاتها كمهنة أو كشاغل أساسى للإنسان أن تؤدى إلى اضطهاد المرأة ؟ هل فى الفلسفة نفسها شىء يؤدى إلى هذا أم لا ؟ قد لا يكون ، ولكن المهم فى رأيى أنه موضوع يستحق النقاش ، **التعليل الأول** أنه ربما كان فى الفلسفة وحدها شىء ما يؤدى إلى هذه النتيجة ، النقطة الثانية هى هل من شأن البيئة التى يعيش فيها

الفيلسوف والمجتمع الذى يحيط به أن يؤثر عليه إلى الحد الذى لا يستطيع معه هذا الفيلسوف أن يتجاوز مجتمعه؟ هذا **تعليل ثان ، والتعليل الثالث** إلى أى مدى تنعكس الظروف الشخصية للفيلسوف على موقعه من المرأة ؟ وإلى أى حد يستطيع الفيلسوف أن يتجاوز أوضاعه الشخصية ومحنته الشخصية إن وُجِدَت ؟ أو يخضع إلى هذه الظروف الشخصية ، ويصبح مجرد انعكاس لها ، يفلسفها، ويحولها إلى رؤية عامة للكل. يُخَيَّل إلىَّ أن هذه المحاور الثلاثة تستحق منا الاهتمام كمدخل لتعليل هذه الظاهرة.

د. إمام

أنا أود أن أعلق بسرعة على النقطة الأولى ، هل فى الفلسفة شىء يؤدى إلى اضطهاد المرأة ، أنا لا أظن أن فى طبيعة الفلسفة أى عنصر من عناصرها يؤدى إلى اضطهاد المرأة ، لكن إذا كانت الفلسفة كما قال هيجل هى عصرها ملخصاً فى الفكر ، وإذا كان هذا العصر يضطهد المرأة فمن الطبيعى أن تكون هناك فلسفات تدعو إلى اضطهاد المرأة أو تقنن هذا الاضطهاد أو تضع له نظرية.. إلخ ، وهذا ما يفسر لنا رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو عمالقة الفكر اليونانى حيث يمكن تصنيف وضع المرأة فى أثينا إلى ثلاث فئات : الجوارى ، الغوانى ، المرأة الحرة. طبعاً الجوارى والغوانى لا قيمة لهن ، لأنهن وافدات ، أعنى من أجانب المرأة ، أما المرأة الأثينية الحرة فهى وحدها التى تصلح لأن تكون زوجة ، فلا يجوز للرجل اليونانى الحر أن يتزوج جارية أو أن يتزوج غانية أو أجنبية وإلا فقد حقوقه السياسية ، ولهذا ظهرت المشكلة مع أسباسيا وبركليز لأنها كانت عشيقته ولم يستطع أن يتزوجها.

المرأة الأثينية الحرة مخصصة لإنجاب الأبناء. إننى أتصور أن المشكلة كانت فى هذا المجتمع هى الملكية بالمعنى الواسع لكلمة الملكية ، كيف أورث

أبنائى ما أملك سواء ملكية عقارية أو ملكية أراضى ، أو مميزات ، فالرجل اليونانى له مميزات ، حقوقه السياسية ، مشاركته فى الدولة أو فى الجيش ، وهذه محرمة على الأجانب ويرثها الابن ، فكيف أورث أبنى هذه الخصائص ؟ لابد أن آتى بالمرأة وأعقمها وأمنعها وأعزلها عن الرجال بحيث لا تخرج إلا منقبة وبالتالى كانت فكرة النقاب والحجاب موجودة عندهم قبل المسيح بستة قرون أو أكثر ، وهذه الفكرة جعلت من المرأة أداة لإنجاب البنين الذين سوف يرثون الرجل ، أما الأنثى فليس لها حقوق ، ليس لها مشاركة إيجابية .. إلخ.

د. غانم

كيف تفسر أن حرب "طروادة" قامت من أجل امرأة ؟

د. إمام

هذه من الأشياء التى تقال فى كثير من الأحيان ضد المرأة ، سواء فى ألف ليلة وليلة ، أو فى حرب طروادة ، فى الكوارث البشرية الضخمة التى حدثت كانت المرأة هى السبب ، ويصورون المرأة فى حرب طروادة بأنها كانت خائنة لزوجها ، لا يقولون إن باريس خطفها ، إنما اتفق معها ، وبالتالى هربت معه .

د. حسين

هل الفلسفة كمهنة أو كدراسة أو اهتمام بشرى تتضمن ما يؤدى إلى اضطهاد المرأة ؟ أنا أتصور أن الفلسفة كبحث فى العام والمجرد يمكن أن تجعل الفيلسوف له موقف ضد المرأة ، لأن المرأة بحكم طبيعتها وهى كثيراً ما يتم النظر إليها بوصفها رمزاً للحياة ، والحياة هنا بمعنى الحياة الحسية، والفيلسوف يريد أن يحلق فى المجرد والعام بحثاً عن العلل البعيدة للحوادث

والأشياء ، فهو لا يريد أن تستغرقه تفاصيل الحياة اليومية ، فى حين أن المرأة تمثل الحياة بكل خصوبتها وتفاصيلها. ومن ثمَّ يعتقد الفيلسوف – سواء كان على صواب أو خطأ – أن المرأة تشده للأرض ، وتجذبه إلى الطبيعة ، فى حين يسعى هو – بحكم كونه فيلسوفًا – إلى تجاوز العالَم الحسى والتحليق فيما وراء الطبيعة ، فى اعتقادى أن الفلسفة كدراسة فى المجرد والعام تجعل الفيلسوف عادةً يضيق ذرعاً بالمرأة التى تشده للأرض وتشده إلى الجزئيات الحياتية التى يرغب فى أن ينفك منها حتى يستطيع أن يبنى لنفسه تصوراً فلسفياً عاماً أو نسقاً فلسفياً كلياً.

د. غانم

ليسمح لى أن أخالف هذا الموقف مخالفة جذرية ، ألسنا نحن الذين نسقط ما يهمنا على واقعة اجتماعية ، ونستنتج من هذا الإسقاط ، أن الفيلسوف قال ذلك بسبب اهتماماته وانشغاله بكذا وكذا ؟ السؤال هو ، وفى إطار ما قاله الدكتور فؤاد ، هل من فلسفة طرحت سؤالاً فلسفياً حول المرأة وقيمة المرأة أو دور المرأة .. إلخ أم أن الفلسفة تطرح السؤال القائل هل هذا إنسان أم لا ؟ وما تبقى يأتى لاحقاً ملتصقاً ومن خارج الفلسفة ، وأنا آسف أيضاً أن أخالف الدكتور إمام ، حول الصورة القاتمة التى أعطاها عن الفلسفة اليونانية للمرأة.

إن ما نجده فى الفلسفة اليونانية حول المرأة هو تشريع لدور المرأة ، يحط من كرامتها دون شك ، إلا أنه لا يعالجها فلسفياً ، الفلسفة اليونانية لم تعالج، وكل فلسفة أخرى لم تطرح سؤالاً ولم تشكك يوماً بأن المرأة إنسانة، والسؤال الفلسفى هو حول طبيعة المرأة هل هى إنسان أم لا ؟ وكما قلت سابقاً جميع ما يتبع هو من باب التحليلات الاجتماعية لا الفلسفية ، أن يكون دور

المرأة مثلاً فى الأسرة اليونانية منقسماً إلى ما تفضلتم به ونشرتموه حول هذا الدور ، إن المجتمع اليونانى أعطى الوافدة والغانية "حقوقاً" وأعطى اليونانية الأثينية حقوقاً أخرى ، إن وافق أفلاطون أو سقراط عليه أم لم يوافق ، فهذا خارج عن منظومته الفلسفية تماماً ، وهذه الصورة القاتمة التى ألقيت على الفلسفة بشكل عام ، ليس فقط الفلسفة اليونانية ، أنا أعتقد أنها تأتى عن إسقاط أو عما يمكن أن نسميه حكماً تقييمياً لما نجده فى تاريخ الفلسفة من أحداث ، أو تناقض. لكننا ننسى أننا نحن الذين نسقط اليوم من قناعاتنا ما يجب أن يكون بدل أن نسأل هؤلاء فى أى ظروف وجدوا ففكروا هكذا ولم يفكروا فلسفياً.

أ. ناهدة

بالنسبة للسؤال الأول إن الفلسفة كمهنة تتطلب من الفيلسوف أن يبدى آراءه بكل ما هو موجود سواء بالمجتمع أو بما يحيط به ، وسواء كان الفيلسوف يعكس المجتمع الذى يعيش فيه أو تجربته الشخصية أو تأثير المجتمع. إن طبيعة مهنة الفلسفة تتطلب أن يكون للفيلسوف آراء بكل ما هو محيط به ، سواء قضايا اجتماعية ، أو ثقافية أو سياسية ، بما فى ذلك المرأة لأنها جزء من ذلك المجتمع .

د. إمام

أرسطو عندما يقول المرأة وسط بين الرقيق والرجل الحر ، هو يقنن هذا ، المعلم الأول يقنن هذا ، عندما ينقل أفكاره الميتافيزيقية ، ويقول إن المرأة لها فضائل خاصة ، وإذا شاركت فى فضائل الرجل تكون منحطة يعنى لا يجوز للمرأة أن تكون شجاعة ، أخلاق الرجل مختلفة تماماً عن أخلاق المرأة ، فضيلة المرأة هى الصمت ، وهذه نظرية فى الأخلاق ، أخلاق المرأة شىء

وأخلاق الرجل اليونانى الحر شىء آخر.

د. فؤاد

أريد أن أقول إن الدكتور غانم ينطلق من نظرة حنبلية جداً ، وأنه فى تاريخ الفلسفة كله ، كانت الفلسفة تكتسب حيوية شديدة وتلقى عليها أضواء ساطعة ، كلمنا أزلنا هذه الحواجز التى تقول إن هذا فلسفى وهذا اجتماعى وهذا تاريخى وهذا كذا ... إلخ. هذه وجهة نظر لها أنصارها. دكتور غانم واضح أنه من أنصار هذه النظرة النقية جداً ، لكن فى واقع الأمر إنه طوال العصور المختلفة للفلسفة كان هناك من يخدمون الفلسفة من خلال إلقاء تلك الأضواء الجانبية عليها إننا لو استسلمنا لهذه النظرة ، فسوف نتعرض لتلك الانتقادات التى تقول إن الفلسفة معزولة .. إلخ ، ولم لا نتصور الفلسفة على أنها هى الخلاصة الشاملة لمستوى الفكر البشرى فى أى عصر من مختلف جوانبه ، ويدخل فيها الفن والاجتماع والنظريات النفسية والأدبية .. إلخ. هذه الفلسفة بمعناها الواسع الذى لا يوافق عليه دكتور غانم ، هى موجودة ولها أنصارها ومؤيديها.

هذه نقطة ، النقطة الثانية إنه فى واقع الأمر لما طرحت هذه المسألة الأولى وهى مسألة هل فى الفلسفة كمهنة شىء يؤدى للنظر إلى المرأة بطريقة دونية ؟ كانت فى ذهنى بعض الأفكار المشابهة لما طرحه الدكتور حسين ، وهى أنه ربما – وهذا مجرد فرض – إن نظرة الفيلسوف إلى عمله على أنه محلق فى عالَم المعقولات ، وعلى أنه ذو طبيعة روحية فى نهاية الأمر ، والمرأة جرى العرف على الربط بينها وبين العالَم الحسى، فقد يؤدى ذلك إلى شعور الفيلسوف ، بأنه يؤدى مهنته على أفضل نحو ممكن إذا ابتعد عن هذا المؤثر الحسى الواضح ، وبالمناسبة ومن الأشياء الطريفة إننى حصلت أخيراً

على كتاب لم يتسع للأسف الوقت لقراءته قراءة جيدة ، ولكن ألممت بفكرته العامة ، اسمه "محاورات إكزانثيبية" يريد مؤلفه – وهو مؤلف إنجليزى معاصر – أن يكتب محاورات أفلاطون من وجهة نظر إكزانثيب ، ماذا ستقول المرأة لو كان لها أن تقوم بهذه المحاورة ؟!

د. عبد الغفار

الأفكار التى طُرِحَت كلها قيّمة ، وتحتاج إلى تعليقات كثيرة ، وكلام الدكتور حسين فيه قدر كبير من الوجاهة ، فالفيلسوف ، وبخاصةٍ فى العصر القديم ، كان يمكن أن يعيش فى الفلسفة ، بمعنى أن يعيش فى الفكر الثابت والأبدى والخالد فهو الجدير باهتمامه ، وهذا فكر سيطر على الفلسفة اليونانية كلها ، فكان المتغير هو الفاسد والناقص .. إلخ ، لعل هذا هو الذى جعل فيلسوفاً كبيراً مثل سقراط يكون غير فلسفى بالأصالة فى علاقته بالمسكينة إكزانثيب ، وأنا أعتقد أن نظرة فنية بسيطة إلى شخصية إكزانثيب ربما تبدو فى جانب ما أنها الأكثر أو الأعمق بصيرة من سقراط ، ليس فقط لأنها مرتبطة بالحياة ، وهى التى تحملت عبء أولاده وربتهم ، بل هى التى طالما حذرته من الجرى وراء الشباب الأغنياء فى أثينا ، وأن هؤلاء سيجنون عليه فى النهاية وهذا ما حدث ، ونفس الكلام الذى تفضل به دكتور فؤاد.

الحقيقة إنه يراودنى من مدة طويلة كجزء من محاولاتى القصصية ، والحقيقة إننى أكتب فعلاً مسرحية عن سقراط من وجهة نظر إكزانثيب ، كيف أنها تتمزق حزناً لهذا الرجل الواسع العقل الذى ليس عنده عقل كاف ، لكى يدرك الأرض التى يقف عليها ويدرك المصير الذى سينتهى إليه حتماً ، فيترك الحى الواقعى الملموس ، الذى هو أولاده والحياة نفسها ، وينساق وراء أفكاره

واهتمامه بالحد والماهية والمنهج والتوليد وكل ما نعرفه عن سقراط ، هذه مسألة ، ولكى نعمم هذا ربما يمكن أن نقول إن الفلاسفة أو الكثير من الفلاسفة فى عصور كثيرة ظل عنصر الحياة أو الطبيعة أو ما نسميه ما شئنا ، ظل بعيداً عن العديد من الفلاسفة ، وإنه ربما فى مبلغ علمى على الأقل ، لم يفطن إلى هذا الجانب إلا بعض النساء المتفلسفات خصوصاً فى عصرنا الحاضر ، وبالذات سيمون دى بوفوار ، وكذلك حنا أرندت ، ومن الممكن أن تكون هناك أسماء أخرى لا أعرفها ، وسيمون دى بوفوار تبرأت من جسدها وتبرأت من تشييئ الجسد ، أى من اعتبار المرأة جسداً ومصدراً للمتعة وإلى آخره ، وأثارت قضية أكبر من هذا ، وهى أن المجتمع الذى تسود فيه علاقات الاغتراب ، واستغلال الإنسان للإنسان ، وقهر الإنسان للإنسان ، لابد من تحرير هذا المجتمع أولاً قبل أن نفكر فى تحرير المرأة ، والغريب ، ومما يُخْجِل الفلاسفة الرجال، أن من قام بهذا الدور وهو تحرير المرأة من طبيعتها الضعيفة ، كما تصورها الرجل ، هن النساء وليسوا الرجال ، ولا أدرى إن كان هناك فلاسفة ، قاموا بمحاولة أخرى ، فالكثير من الفلاسفة لم يضعوا المرأة فى نسقهم.

من ناحية الإمكان أقول إن الفيلسوف يمكن أن يقيم فلسفة كاملة على تحرير المرأة ، يعنى هذا ممكن أيضاً بعكس ما غلب على الفلسفة بشكل عام، على أساس أن تحرير المرأة هو تحرير المجتمع ، وتحرير لعلاقات القهر طالما كان هناك قاهر ومقهور ومستغل ... إلخ ، إذاً تحرير المرأة هو تحرير للإنسان من كل علاقات الاغتراب هذه. ننتقل من هذا إلى البيئة ، وهذه مشكلة كبيرة فى الحقيقة أثارها الدكتور فؤاد ، وهى تأثير البيئة على الفيلسوف ، نحن فى عصرنا الحاضر وفى لحظاتنا الراهنة ، نتساءل للأسف لماذا لم يستطع فيلسوفان كبيران هما أفلاطون وأرسطو أن يتجاوزا بيئتهما؟ والتجاوز

هو من صميم عمل الفيلسوف الأصيل ، بحيث لم يتجاوزا مجتمع العبودية ، وبالتالى لم يجاوزا النظرة الدونية إلى المرأة ، لأننى اعتقد أن نظرتهما إلى المرأة هى جزء من المجتمع الرجولى ، مجتمع الرق ، وكما أجازا الرق وباركاه فلسفياً ، فإنهما أيضاً قد أحلا لأنفسهما أن يصورا المرأة فى صورة العبد غير الجدير بالمشاركة فى الحياة السياسية ، وغير الجدير بالقيام بمهام الرجال ، والنظر إليها كما قال الدكتور إمام كإنسان ناقص العقل، فالمشكلة هى أن فى البيئة شىء يؤثر على الفيلسوف بحيث لا يستطيع تجاوزه ؟ هل نحن نطالب هذين الفيلسوفين الكبيرين بشىء لم يكن فى مقدورهما أن يقوما به ، وهو أن يتجاوزا هذه العلاقات البنوية الأساسية فى المجتمع اليونانى بحيث نتوقع أن يرفضا هذه العلاقات عموماً ، وبالتالى ينظرا نظرة جديدة ؟

هل الضعف جزء من طبيعة المرأة أم هو وضع فرضه الرجل على المرأة لأنانيته وقيادته للمجتمع وشخصيته كغازٍ وفاتح باستمرار ؟!

هذا سؤال مهم جداً وأنا اعتقد إن مشكلة المرأة كما قالها الدكتور غانم وأقولها بصورة أخرى المشكلة الكبرى إن معظم الفلاسفة لم يستطيعوا أن ينظروا إلى المرأة أولاً كإنسان ويردوا إليها اعتبارها كإنسان ، وإنما نظروا إليها على أنها ضعيفة ، والفلسفة بوجه عام سايرت هذا الوضع المهين للمرأة فى العصر الحاضر ، وأخشى إنه لم يتم الانتصار على هذا الوضع حتى الآن ولم يرد للمرأة اعتبارها فى أى حضارة من الحضارات حتى فى الحضارات الغربية المتقدمة.

د. غانم

شكراً للدكتور عبد الغفار ، إننى أشعر أن بيننا خطاً مشتركاً ، القول بأن الاهتمام بالتزييد ما تفضل به الدكتور حسين وسانده الدكتور فؤاد إننا نحن فى

الفلسفة نجرد ، وبالتالى يزعجنا كل ما هو دنيوى أو كل ما هو تفصيلى ، فنترك أمور الحياة للآخرين ، ونهتم بكل ما هو إجحاف بحقنا نحن ، لا ادعى أننى فيلسوف وإنما اهتم بالفلسفة ، ومهنتى أيضاً هى العمل بالفلسفة ، يحط من قدرنا نحن كبشر بأى حق أقول لنفسى بأننى اشتغل بالفلسفة ، وأضع عبء حياتى اليومية على زوجتى ، هل هناك مبرر لذلك؟

أ. ناهدة

هذا لا ينطبق فقط على الفيلسوف بل ينطبق على كل مثقف ومفكر.

د. غانم

حُيِّيت ، وبالتالى فالحجة إننا نشتغل بالأمور التجريدية وهناك من يشتغل بالأمور التجريدية أكثر منا ، ويهتم بالكليات أكثر منا أيضاً ، غير مقنعة ، أريد أن أدافع عن حقنا نحن الذين نهتم بالفلسفة ، أو الفلاسفة ، عن حقنا فى الحياة العادية الملتزمة بوجودنا الإنسانى الواقعى ، فلست أدرى مَنْ منا لا ينظر إلى شىء جميل أو إلى تفاصيل فى الحياة ، إلى أكلة رائعة مثلاً ويستمتع بها كإنسان عمله فى الفلسفة أو مبدأه فى الحياة الاهتمام بهذه الأمور دون أن يتأثر فى فلسفته وفى موقفه من ذلك. إن هذه الحجة التى تقدم من أجل تفسير اضطهاد الفلاسفة أو عدم اهتمام الفلاسفة بالمرأة لا تقنعنى ، آسف على ذلك.

د. فؤاد

الدكتور غانم فى الواقع لجأ إلى حيلة طريفة لكى يدعم موقفه وهو أنه نقل ما نقوله عن الفلاسفة إلى "نحن" وهذه هى الحيلة ، فقال "نحن" وجعل المسألة مسألة إشعارنا بالذنب ، نحن نتحدث فى واقع الأمر عن ظاهرة

تاريخية ، ومن الجائز جداً أن معظمنا لا يوافق على سلوك الفلاسفة بهذه الطريقة ، وأنا شخصياً عندما كتبت عن (نيتشه) انتقدت بشدة موقفه من المرأة ، وعندما كتبت عن سقراط وأفلاطون انتقدت بشدة موقفهما ، فأرجو أن لا نسقط آراءنا الشخصية ، فنحن نشتغل بالفلسفة وقد تكون لنا آراء بعيدة جداً عن آراء شيوخنا الذين نتحدث عنهم فى هذه نقطة ، ولكن الذى يهمنا فى الأمر أن الظاهرة وُجِدَت بالفعل ، فكون الدكتور غانم يستنكرها فهذا من حقه ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أنها وُجِدَت بالفعل ، إن ما رصده التاريخ هو أن عدداً من الفلاسفة كان لهم هذا الموقف تجاه المرأة ، وأن بعض هؤلاء الفلاسفة كانوا ناقدين لمجتمعاتهم بمنتهى القوة فى الميادين الأخرى ، وليس فى هذا الميدان.

د. إمام

هو لا ينكر هذا يا دكتور بل ينكر التبرير والتفسير بأن الفلاسفة عملوا كذا لأنهم أكثر تجريداً فى تفكيرهم والمرأة أكثر ارتباطاً بالمادة .. إلخ.

د. فؤاد

هذا أحد التعليلات الممكنة ، كان اعتراضى إننا لا يجوز أن نخلط آراءنا الشخصية بآراء الفلاسفة ، بالإضافة إلى ذلك أريد أن أقول إن الاستنكار الشخصى شىء وما حدث فى التاريخ والواقع شىء آخر. النقطة الأخرى إننا لابد أن نتساءل لماذا كان الفلاسفة متمردين على عصورهم فى أمور كثيرة وراجعوا عدداً هائلاً من الأفكار الراسخة والمتأصلة فى بيئتهم ومجتمعاتهم ، ثم عندما جاءوا عند هذه المشكلة بالذات كانوا مجرد انعكاس وخاضعين لما هو سائد فى المجتمع ؟! أنا أزعم أن السبب فى هذا هو المصلحة ، وأن الفيلسوف برغم كل مثالياته هو أيضاً رجل يتأثر بمصالحه

شأنه شأن البشر جميعاً ، ولأن الرجل له مصلحة فى إبقاء المرأة فى وضع دونى تخدمه وتعطيه الوقت اللازم ليمارس مهنته السامية .. إلخ. فيدافع عن هذا ، بل الأدهى والأمر بأنه يؤصله ويفلسفه ، وهنا الخطورة ، فنرى أن هناك نقطتين : إن كبار الفلاسفة كانوا أبناء عصرهم تماماً بقدر ما كانوا ثائرين فى الأشياء الأخرى ، الأولى وضع المرأة والثانية الرق ، هنا توجد أيضاً مصلحة لدى الفيلسوف الذى كان فى معظم الأحيان ينتمى لطبقة الأحرار.

د. إمام

أريد أن أسأل سؤالاً يا دكتور ، ألا يمكن أن نقول فى هذه الحالة إن الفلسفة تفقد مصداقيتها ، إن الفلسفة بوصفها البحث عن الحقيقة ، كيف تنقلب إلى البحث عن المصلحة ؟

د. فؤاد

هذه نقطة مهمة جداً ، أنا لا أقول إنها تفقد مصداقيتها ، وإنما أقول إن الفلسفة تؤكد نفسها بوصفها نشاطاً إنسانياً ، الفلسفة هنا تؤكد إنسانيتها وضعفها الإنسانى الذى يسرى على كل نشاطات الإنسان الأخرى ، أما الرأى الآخر القائل إن الفلسفة بحث عن الحقيقة بمعنى أن الفيلسوف إنسان متأله وخارج عن كل ما يطرأ على البشر من مظاهر الضعف والتغير. وكذلك فكرة الحقيقة الخالصة النقية التى لا يعتريها أى نوع من الضعف ... إلخ ، أظن أنها أسطورة والعصر الحديث أثبت بطلانها منذ وقت طويل.

د. حسين

أتفق مع الدكتور فؤاد فى أن الفلسفة لا تفقد مصداقيتها كبحث عن

الحقيقة لمجرد وجود هذه الازدواجية فى موقف الفيلسوف الذى يتكلم عن كل قضايا المجتمع بمنهج منطقى دقيق ، أما حين يتحدث عن المرأة فإنه يستخدم منهجاً برجماتياً. هذا لا يعنى أن الفلسفة تفقد مصداقيتها ، لأن الفيلسوف فى هذه الحالة يمكن أن ننظر إليه من مستويين أحدهما بوصفه فيلسوفاً ، والآخر بوصفه إنساناً عادياً مثله كمثل سائر البشر. فهو إنسان عادى له أهداف ومواقف معينة وهى تصب فى الظروف الشخصية التى تؤثر على موقف الفيلسوف من المرأة ، ويمكن أن نفسر ذلك بأن ظروفه الشخصية هى التى أدت إلى هذه الازدواجية لأن الفيلسوف بطريقة ما متفرد فهو لا يفكر بالطريقة التى يفكر بها الإنسان العادى ، وهذا يفسر موقفه المضطرب من المرأة لأنه هو نفسه يعانى من نوع معين من الاضطراب الذى ينفس عنه بشكل صحى فيما ينتج من إبداعات فلسفية ويتسامى على هذا الاضطراب أو الاعوجاج النفسى الذى يعانيه ، ويحاول أن يتجاوز ذلك بابداعات معينة ، لكن بإزاء موقفه من المرأة يظل هذا الاعوجاج قائماً ، لأنه يحدث نوعاً من الانفصام أو الازدواجية ، وهذا يفسر بشكل ما موقف الفيلسوف المضطرب من المرأة.

لكن المسألة التى تحتاج إلى وقفة هى أن الدكتور إمام تكلم عن اضطهاد الفيلسوف بألف لام التعريف ، وأنا أتصور أن هذه الطريقة انتقائية، فهل هو قام بعملية إحصاء لكل الفلاسفة فوجد أنهم جميعاً يضطهدون المرأة؟ أنا أتصور أن الإجابة ستكون بالنفى ، ومن ثمَّ أرى أن الاختلاف بينى وبينك يا دكتور غانم ليس كبيراً ، لأننا مثلما نجد فلاسفة يضطهدوا المرأة ممكن جداً أن نرى بعض الفلاسفة لهم موقف سوى من المرأة ، وهذا ممكن أن يكون رداً على الدكتور إمام. ففى رأيى أن الفلسفة ليس من طبيعتها اضطهاد المرأة ، إن مصدر هذا الاضطهاد فى رأينا هو أن المرأة تمثل الحياة والأرض وقد يتصور

الفيلسوف أنه عندما يبتعد عن المرأة فإن هذا يتيح له الفرصة بقدر أكبر للإبداع والتحليق فى العوالم المختلفة.

د. إمام

الفلسفة اليونانية وعمالقة الفكر اليونانى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فى العصور الوسطى المسألة تحولت ليس فقط اضطهاد للمرأة بل مزجها بالفكرة الدينية ، إنها سبب الخطيئة ، وسبب ما حدث للرجل من كوارث. وظل هذا الوضع إلى القرن التاسع عشر. أول الفلاسفة الذين بدأوا يتحدثون عن المرأة حديثاً جيداً وينصفونها هو جون ستيوارت مل أحد رواد الليبرالية، ثم تغير الوضع بعد ذلك .

أ. ناهدة

عندى ملاحظة حول المناقشة ككل. بالنسبة للدكتور غانم ، إنك تحاول أن تعمل نوعاً من الفصل بين ما هو داخل الفلسفة وما هو خارج الفلسفة ، وهذا فى رأيى لا يمكن الأخذ به دائماً ، خصوصاً إننا لابد أن ننظر إلى الفيلسوف نظرة كلية إذ إن أية فكرة تصدر عنه أو عن "شيوخ الفلسفة" كما قال الدكتور فؤاد زكريا يجب أن نعتبرها جزءاً من فكرهم الفلسفى. ولا يمكن أن ننظر إلى أقواله التى قالها فى جلسة خاصة بينه وبين شخص آخر عن المرأة ، مثلاً ، أقوال خارج الفلسفة ، بينما أقواله الأخرى المرتبطة بنظرية فلسفية هى داخل الفلسفة. كل ما قاله الفيلسوف أو فعله يجب أن يُنْظَر إليه كجزء من فلسفته. هذا بالإضافة إلى أن الفلسفة فى المرحلة المعاصرة لم تعد تتعامل مع الفكر الميتافيزيقى فقط ، وإنما نزلت إلى الشارع وبدأت تسعى إلى حل مشاكل الإنسان اليومية الفكرية أو الأخلاقية أو غيرها. أما بالنسبة للدكتور عبد الغفار ، فقد قال إن فلاسفة اليونان لم يستطيعوا الخروج عن عصرهم ، أنا اعتقد أنهم

لم يرغبوا فى الخروج عن عصرهم ، وهناك فرق ، عدم الاستطاعة يعنى كانت هناك رغبة داخلية وبالتالى هم اقتنعوا بما هو موجود والأمر لم يكن على هذا النحو ، إذ إن الوضع فى العصر اليونانى كان يخدمهم بشكل مباشر وهو ما يرتبط "بفكرة المصلحة". هذه الفكرة تبدو لى واضحة أيضاً عند فيلسوف مثل "سارتر". إذ إننا لو درسنا طبيعة علاقته بـ "سيمون دى بوفوار" للاحظنا أن هناك نوعاً من "المصلحة" أيضاً. فهذه "سيمون" تقول إن فلسفة سارتر ما هى إلا انعكاس لذاته ، وبالتالى فإن ارتباطه بها كان على أساس تكملة ذلك الجزء الناقص من ذاته. إذ إنها كانت تكمل الصورة التى كانت ناقصة عن أمه فى مرحلة الطفولة ، ولذلك ارتبط بها ودافع عنها. والغريب أنه فى كلامه عن "سيمون" يدل على أن عنصر المصلحة كان واضحاً أيضاً ، حين يقول : إنه فى كل كلمة تقولها أو كل حديث تتحدثه فيه فكرة جديدة ، أو بمعنى آخر "أنها تحمل دائماً نظرية فى جيبها" وبالتالى كان هو المستفيد منها. وهذا يأخذنا إلى كلام الدكتور إمام حين تحدث عن "جون ستيوارت مل" وعن علاقته بزوجته أستطيع أن أقول هنا إن عنصر "المصلحة" لعب دوراً أيضاً.

د. فؤاد

اسمحوا لى : إن النقلات من هذا النوع من العصر القديم إلى العصر الحديث أو من اضطهاد المرأة إلى قدر من الاعتراف بكيانها فى العصر القريب ، أرجو أن نحاول أن لا ننظر إليها على أنها نقلات شخصية ، هناك بعض الأوضاع الاجتماعية التى من الممكن أن تعلل الكثير مما نجده من نقلات ، مثلاً كانت الفكرة أن اضطهاد المجتمعات للمرأة مرتبط بشيئين الشىء الأول عندما كان النوع الغالب على العمل البشرى هو النوع العضلى ، وبما أن للرجل عضلات وهو الأقوى لذا كان يجب أن تكون له السيادة ، وهذه السيادة الرجولية تنعكس على الجوانب المعنوية مثلما تنعكس على الجوانب المادية ، والشىء

الثانى عندما كان الرجل هو مورد الرزق الوحيد للأسرة، والعائل الوحيد ، أعطاه هذا حق السيطرة التى جعلته ينظر إلى المرأة نظرة دونية. فى العصر الحديث تغيرت الأمور ، ومن هنا ظهر "جون ستيوارت مل" ثم أصبحنا نرى الآن حركات تحرير المرأة ، وأصبحت منتشرة جداً فى العالَم ، وهناك كتب هائلة العدد تصدر كل عام يكتب معظم نساء ، والكثير منها ذو طابع فلسفى عميق والكثير منها ذو طابع لاهوتى ، وهذا كله راجع إلى أن نوع العمل السائد الآن يغلب عليه الجانب العقلى وليس الجانب العضلى ، هنا تستطيع المرأة ان تدخل وتثبت وجودها على قدر من المساواة مع الرجل. ثانياً إن المرأة دخلت سوق العمل منذ القرن التاسع عشر على استحياء ، ثم زادت المسألة بالتدريج إلى أن أصبحت الآن تنافس الرجل فى كثير من الميادين وتتفوق عليه أيضاً. هذا هو الذى أدى إلى التحول الأساسى ولذلك نرى سقراط وأفلاطون ليس لهما مكان الآن.

د. غانم

الموقف الذى اتخذه معارض فى كثير من الأشياء لما قالته الزميلة ناهدة من أن كل ما يفعله الفيلسوف هو فلسفة أو متعلق بالفلسفة .

أ. ناهدة

أنا لم أقل كل ما يفعله ، بل كل ما يقوله يجب أن يُحْسَب على أساس فكره.

د. غانم

لا أعتقد أن هذا ممكن. نحن نتكلم هنا أو أحدنا يفعل شيئاً فى مكان ما أو يكتب مقالة فى جريدة أو يأخذ موقفاً سياسياً هذا لا علاقة له بالفلسفة أو بالتفكير الفلسفى لا علاقة له بأى معنى ، أى أن ظروفاً قاهرة تأتى على

إنسان فى موقف معين وتحتم عليه موقفاً .

د. إمام

هذا يذكرنى بمندوبة بيت من بيوت الأزياء فى فرنسا ذهبت إلى الفيلسوف الفرنسى برجسون H. Bergson تقول له ما رأيك فى "الموضة" لدينا هذه السنة ؟ قال لها : أنا لن أقول رأيى ، قالت : لماذا ؟ قال لها : لأننى إذا قلت لك رأيى سأقول لك رأيى بوصفى مواطناً فرنسياً له ذوق معين يحب اللبس القصير أو الطويل ، وأنتِ لن تأخذيه على هذا النحو ، بل ستقولين إن الفلسفة تؤيد ذلك أو غير ذلك ، والفلسفة لا دخل لها بمثل هذا الموضوع.

د. غانم

إن موقفى التطهيرى أو المتزمت بالنسبة لتحديد مجالات الفلسفة آت ليس من أن الفلسفة لا تلتزم بقضايا المجتمع وقضايا الإنسان ، كلا ! إذا لم تكن الفلسفة ملتزمة لا تكون فلسفة. وإنما لكى لا نخلط الأمور وتوضع على أكتاف كل من يقول بالفلسفة أحمال لا يمكنه حملها. هذه النظرة هى فقط من أجل أن نحدد فلسفياً ما هى الفلسفة ؟ ثم اعتراضى على الدكتور فؤاد هو أننا حين نحاول شرح المعطيات أو الأقوال الفلسفية أو المنظومات الفلسفية بالعوامل الاجتماعية كما تفضلتم ، وأوافقكم على ذلك ، هذا التفسير هو من خارج الفلسفة أى يأتى على الفلسفة من الخارج بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ... إلخ ، إلا أنه لا يتيح لنا ، كما أرى ، أن ندله على فلسفة سقراط أو أفلاطون ونطالبهم بأن يثوروا على مجتمعهم فى عصرهم وذلك بنفس الحجة الاجتماعية التى تفضلتم بها.

د. إمام

لم نطالب بثورة أبداً.

د. غانم

تطالبون سقراط وأفلاطون وأرسطو بأن يخرجوا على مجتمعاتهم كما خرجوا فى أشياء أخرى وهم فى هذه النقطة ، نقطة العبودية ونقطة تقدير المرأة ، لم يخرجوا على مجتمعاتهم لأن المجتمع لم يكن يسمح لهم بذلك. ولكن مثلما عللتم تحررية "مل" بالمجتمع وتطوره يجب أن تسامحوا أولئك المساكين لأنهم لم يثوروا على مجتمعاتهم.

د. فؤاد

هذه نقطة مهمة جداً ، فى الواقع ، أنا لم أطالب بأى شىء ، ولم أندد، كنت أعلل فقط لماذا هم تمردوا فى جوانب ، ولم يتمردوا فى جوانب أخرى ، أرجو أن أعلل وأنا أعرف أن المطالبة فى مثل هذه الأمور لا معنى لها من الأصل ، لكن من المهم أن ندرك أيضاً إنه كان فى الفلسفة اليونانية تيار آخر، ولكنه كُبِتَ وقُمِعَ وهو التيار السوفسطائى والهيراقليطى وما يترتب عليه ، وهناك عدد كبير من الفلاسفة فيما بعد قالوا إن هذا التيار كُبِتَ بشكل متعمد ، وربما دخلت فيه عوامل سياسية ليس منهم "نيتشه" و"هيجل" إلى حد كبير. بل "بيكون" نفسه قال هذا أيضًا: "إن هؤلاء هم الفلاسفة" ، ربما كان من الممكن أن نطلق عليهم اسم الفلاسفة الكبار ، أما الشخصيات الكبيرة التى لمعت ، فربما كانوا أقل أهمية. ولكن لظروف تاريخية ظهروا ، فالمسألة مسألة رصد وتعليل.

د. إمام

أود أن أعارض الدكتور غانم قليلاً بأنه يفصل ويفرق تفرقة بيوريتانية(*) أنا شخصياً أرفضها ، فهل يريد أن يجعل الفلسفة مرادفة للميتافيزيقا ؟ آراء أرسطو فى الأخلاق وفى السياسة أين نضعها ؟ أفى منظومته الفلسفية أو خارج منظومته الفلسفية ؟ وإذا كان وضع المرأة فى الأخلاق وفى السياسة عند أرسطو متدنٍ ومنحط ، ماذا أقول ؟ هل أقول إنه جزء من أرسطو الفيلسوف وفلسفته ومنظومته ، أو رأيه كرجل وزوج ؟ فرأيه كرجل وزوج كان ممتازاً فى المرأة ، وهذا هو الأمر الغريب أيضاً ، إنه فى حياته الشخصية تزوج مرتين ، وكان فى غاية السعادة لدرجة أنه أوصى بأن رفاة زوجته الأولى يُنْقَل معه إلى قبره ، وزوجته الثانية ، أوصى لها بمنزل ومجموعة من العبيد ، ووافق على أن تتزوج من بعده ، شريطة أن يكون رجلاً فاضلاً ... إلخ.

أ. ناهدة

أنا اتفق مع الدكتور إمام فى هذه النقطة ، فهناك فلاسفة كانت لهم آراء مختلفة حول مواضيع مختلفة فلا نستطيع أن نفصلها فـ "رسل" كانت له مواقف سياسية واجتماعية لا نستطيع أن نفصلها ، هذا بالإضافة إلى أنه كان لديه اهتمام بالرياضيات. و "سارتر" فى كتاباته الأدبية كان يعكس وجهة نظره بالفلسفة .

(*) البيوريتانية أو البروتستانتية وهما مترادفان ، تتمثل فى جملة المعتقدات التى طرحها "مارتن لوثر" وكونت الأصول الاعتقادية للثقافة الخاصة بالديانة المسيحية الجديدة أو المسيحية الإصلاحية الغربية. وهى تسمى بالثقافة البروتستانية ، أى ثقافة جماعة المحتجين أو الرافضين لمعتقدات الكاثوليكية والتى بدأت بزعامة "مارتن لوثر" فى ألمانيا.

وتسمى البيوريتانية نسبةً إلى الجماعة التى اعتنقت معتقدات حركة الاصلاح فى إنجلترا ، ولقب أصحابها بالأطهار أو المتطهرين Puritains من معتقدات الكنيسة الكاثوليكية ، وعندما تمكنت من انتزاع السلطة السياسية أصبحت إنجلترا "بريتانيا" أو "بريطانيا" ، وهى تولت تأسيس هذه الثقافة. (المؤلف)

د. عبد الغفار

أود أن أسأل سؤالاً أدبياً يترتب على هذه المناقشة القيمة ، وهو أنه طالما نحن متفقون بوجه عام على أن الكثيرين من كبار الفلاسفة من العصور القديمة ومن العصر الحالى أيضاً لم ينصفوا المرأة ولم يجعلوا لها مكاناً حقيقياً فى أنساقهم على غير ما كنا نتوقع ، وخصوصاً الفلاسفة الذين أرادوا تغيير العالَم وعملوا ثورات فى الفكر السياسى والعلمى فى عصرهم ... إلخ. لم يدمجوا المرأة فى نسقهم الأخلاقى. فإذا صح هذا فهل كان عدم ظهور فيلسوفات باستثناءات قليلة جداً حتى العصر الحاضر راجعاً إلى حد ما إلى سيطرة الرجل على المرأة ، وكون المجتمع مجتمعاً أبوياً ذكورياً ورجولياً ... إلخ. وهل هذا يفسر لنا إلى حد ما اشتعال الحركات النسائية فى وقتنا الحاضر وتقديمها فلسفات لتحرير المرأة وتحرير المجتمع كله ؟ فما السبب فى عدم ظهور فيلسوفات بالمعنى الحقيقى طوال تاريخ الفكر ؟ وهل هذا مصداق لآراء بعض الفلاسفة أن المرأة عاجزة عن التفكير المجرد والمستقل ، وعاجزة أيضاً كما قال العقاد فى كثير من الأحيان عن الإبداع فى الموسيقى مثلاً والفلسفة نفسها. وهل هذا راجع إلى طبيعة المرأة أم أنه راجع إلى تصور الرجل عن المرأة ، ولو قد أتيحت لها الظروف الملائمة كما تتاح للمرأة فى الوقت الحاضر لنبغت عالمات فى كل المجالات كما نبغت الفيلسوفات فى عصرنا الحاضر ، فنريد أن نبحث هذه المشكلة ؛ وهى عدم ظهور الفيلسوفة طوال هذه العصور حتى عصرنا الحاضر .

د. إمام

أنا اعتقد أن السبب الرئيسى هو سيادة الرجل ، وسيادة المجتمع الذكورى ، وللأسف الشديد إن الرجل أقنع المرأة بعجزها وأقنعها بأنها غير قادرة ، وأن

عقلها قاصر ، وأنها أقل منه على التفكير المجرد ... إلخ. لأنه إذا كانت هناك أمثلة ولو قليلة جداً تنفى القضية. أى تنفى عجز المرأة، فإن هذا معناه أن العجز ليس طبيعة خاصة بالمرأة. فنجد مثلاً فى العصور اليونانية أنا عندى كتاب عبارة عن أربعة مجلدات عن تاريخ النساء الفلاسفة فيها نماذج من اليونان من المدرسة "الفيثاغورية" وديوتيما التى ذكرها أفلاطون فى المأدبة على أنها معلمة سقراط ، وأنها صاحبة النظرية التى أعلنها سقراط فى "المأدبة" عن الحب. وهناك مناقشات كثيرة هل هذه الشخصية شخصية خرافية اختلقها أفلاطون ، أم أنها شخصية حقيقية ؟ كثير من الباحثين ومنهم "تيلر" ، وهو أفلاطونى أساساً ، يؤكد أنها شخصية حقيقية ، وليس من عادة أفلاطون اختراع هذه الشخصيات.

هناك "هيباشيا" فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة وبحوثها فى الرياضيات، والأفلاطونية الجديدة ، وهى بحوث فى غاية التعقيد ، وفى غاية التجريد ، تعلمت من والدها الذى كان أستاذاً للرياضيات فى متحف الإسكندرية، وأتقنت إتقاناً كبيراً علوم الرياضيات والفلسفة (فلسفة أفلوطين بوجه خاص)، ودرستها وعلمتها وهذا مثل حى ، ماذا حدث للمجتمع الرافض والذى يريد أن يجعل من المرأة أقل من الرجل ؟! ليس فقط رفض موقفها ، بل ذبحها ومزقها مجموعة من الرهبان اعترضوا طريقها وهى راجعة من المتحف. وهى ظاهرة غريبة ، كيف تُفَسَّر ؟ جردوها من ملابسها لتكون عارية تماماً قبل الذبح ، وأنا حتى الآن أُذْهَل أمام هذا الموقف .

أ. ناهدة

لماذا شخصيات من هذا النوع لم تصل إلينا ؟ مثل ما وصلت إلينا شخصيات أفلاطون وأرسطو ؟ نقلوا ما قاله الرجل فلماذا لم ينقلوا ما قالته المرأة؟

د. فؤاد

لنفس الأسباب. أريد أن أعلق على ما تفضل به د. عبد الغفار ، وهو لماذا لم تظهر فيلسوفات ؟ هذا فى الواقع جزء من القضية العامة ، نحن نستطيع ان نسأل نفس السؤال ، لماذا لم تظهر أديبات فى تلك العصور ، أو عالمات رياضيات او فلكيات فى الوقت الذى يحفل فيه التاريخ بأسماء الرجال ؟ فى الحقيقة إن ما صار على المرأة لم يكن غريباً عما صار عليها فى كافة الجوانب الأخرى ، ووضعها الفلسفى هو انعكاس لوضعها الاجتماعى العام. الآن نحن نرى أن هناك نساءً يشتغلن بالفلسفة لهن مكانة كبرى فى جميع الدول المتقدمة ، وفى البلاد العربية نفس الوضع ، وأنا أتصور من خبراتى الشخصية ، فقد تحدثت إلى الكثيرات ممن لديهن القدرة والطموح ، وكان الرد دائماً أنه بقدر ما نتحرر من الأعمال التى يفرضها علينا الرجل ، نستطيع أن نؤكد أنفسنا ، هذه هى القضية. وحتى اليوم المرأة لم تتحرر تحرراً كافياً ، وبالتالى تصبح الظاهرة طبيعية جداً.

د. إمام

وتأييداً لكلامك الآن ، فى القرن العشرين حين تظهر "سيمون دى بوفوار" و "سوزان ستبنج" فى مجال الفلسفة ، ونرى فى مجال السياسة "تاتشر" و "بى نظير بوتو" و "أنديرا غاندى" ، عندما يحدث قدر ولو ضئيل من التحرر للمرأة تظهر ليس فقط فى مجال الفلسفة ، وإنما فى مجال السياسة أيضاً وفى الأدب .. إلخ .

د. عبد الغفار

لا أريد أن تمر مأساة "هيباشيا" بغير تعليق ، لأن هذه المأساة المروعة فيها دلالات كثيرة. وطبعاً د. إمام له الفضل فى أنه كتب مقالة جيدة ومؤثرة

جداً وأستاذنا المرحوم د. زكى نجيب محمود كتب مقالة رائعة. أريد أن أقول إن مأساة هذه المرأة ، صحيح أنها لم يصدر عنها نسق فلسفى بالمعنى الحقيقى، إنما كانت شارحة لكتب الرياضيات مثل كتاب "المجسطى"، والشرح عثر عليه أخيراً ، وتكريماً لها صدرت مجلة باسمها بجامعة "الينوى". على كل حال أريد أن أقول إن مأساة "هيباشيا" يمكن أن تُلْقِى الضوء على الظلم والاضطهاد الذى لحق بالمرأة ، ومازال يطاردها فى ظل كل الحضارات تقريباً ، حتى عصرنا الحاضر ، على الرغم من أن المرأة أصبحت أستاذة فى الفلسفة ، وفى بعض البلاد مبدعة فلسفية ، وفى مجالات كثيرة جداً وحتى فى الوقت الحاضر توجد مبدعات فى الموسيقى مثلاً وقائدات للأوركسترا ، وأعمال كان يُظَن أنها بطبيعتها عاجزة عنها. الغريب أن "هيباشيا" من أسباب اضطهادها والتآمر عليها إلى أن وصلت الأمور إلى الذروة الفظيعة التى أدت إلى قتلها ، أنها فى عصر اضطهاد المسيحية كان هناك من جانب المسيحيين الاسكندرانيين نوع من التوحيد بين العلم والثقافة والوثنية ، فكانت رمزاً للوثنية ، وكان من السهل جداً على المهووسين دينياً أن يثيروا الغوغاء عليها. النقطة الثانية : أن السبب فى مأساتها هو "الأسقف كيرلس" كما عرفته فى مقال الدكتور إمام كان رجلاً فيه صفات تنطبق اليوم، وخصوصاً فى إطار حضارتنا العربية الإسلامية على بعض المهووسين دينياً من الوعَّاظ الشعبيين والمتطرفين دينياً ، أحد الأسباب التى أثارته أن هذه المرأة كانت جميلة جمالاً رائعاً ، وأنه اتهمها بأنها على صلة بحاكم المدينة "أوستيس" ، وافترى عليها أنها كانت على علاقة به فزاد هذا فى إشعال النار، مع أن ما يقوله الرواة عن هذا الرجل نفسه يثبت إنه لم يكن متديناً بالمعنى الحقيقى ، وإنه كان رجلاً حسياً ومادياً ، وهذا يذكرنى كثيراً ببعض وعاظنا الفضلاء الذين ينبرون فى الهجوم على المرأة وتصويرها على أنها فتنة ، وللكلام عن الجنس بشكل ليس فى مصلحتهم لأنه يشى بكل

بساطة بأن لديهم مشاكل كثيرة من هذه الناحية بالذات ، فاضطهاد المرأة يصل إلى ذروته فى هذه الحالة. والغريب أن هذا الاضطهاد ، وهذه البواعث مازالت قائمة إلى حد ما ، لأنه مازالت المرأة هى رمز الفتنة والشر واللعنة، ومايزال بعض الناس يقولون إن جسدها عورة. والغريب أن كثيرات جداً من النساء ، وهذا الأمر فى تزايد وهذه مشكلة كبيرة ، أن المرأة نفسها صدقت هذا وتدافع عنه بسلوكها وارتدائها للحجاب والنقاب .. إلخ. أنا لا أريد أن أفتح هذه المشاكل لأنها جروح شديدة الغور ، ولكننى أيضاً لا أترك الفرصة دون أن أقول إنها بالفعل مشاكل حقيقية فى سبيل تقدمنا وفى سبيل ما يدعو إليه كل العقلاء من حضارة وتقدم .

د. إمام

أنا أود أن أضيف عبارة واحدة لما قاله الزميل الدكتور عبد الغفار هى أن كثرة كثيرة مما يقوله الوعّاظ غريب عن الإسلام. أنا قرأت عبارات فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى تكاد تكون منقولة بنصها عن أرسطو. إذا المرأة تحلت بفضائل الرجل فهذا شر ما تفعله. وهذه عبارة أرسطو وليس هذا رأى الإسلام ، كلام المعلم الأول "أرسطو" نُقِلَ وأصبح جزءاً من التراث.

أ. ناهدة

أريد أن أسأل سؤالاً ، الذى لاحظته من المناقشة حتى فى المراحل الحالية أو لمراحل قريبة لم تُعْطِ المرأة فرصة كافية لتظهر فى هذه المجالات ، السؤال ، هل الرجل منع المرأة من هذه الأشياء بسبب النظرة الدونية أو الخوف من أنه لو أعطاها فرصة كافية ستتفوق عليه ؟

د. إمام

ليس هناك تعارض بين الاثنين ، إذا افترضنا أن دافع الخوف موجود، فإن الخوف هو الذى يجعله يبرر هذا الخوف فكرياً وفلسفياً بالنظرة الدونية ، وبعبارة أخرى يقول إن المرأة لا تصلح لكذا وكذا وهى ناقصة عقل ودين. . الخ. لكى يبقيها فى هذا الوضع المتدنى ويقنعها به ، لأنه يخشى من أن تخرج وتثبت نفسها وتقف معه على قدم المساواة .

د. عبدالغفار

هل يترتب على ما تفضل به الدكتور فؤاد ، وهو سؤال مهم ، أن تحرير المرأة لابد أن يسبقه تحرير المجتمع ككل ؟

د. حسين

لَدَىَّ تعليق على ما قاله الدكتور عبد الغفار ، إنه بالفعل بعض المهوسين دينياً عندما ينظرون إلى المرأة ، إنما ينظرون إلى جسد المرأة على أنه كتلة من الجنس يجب إخفاؤه ، وهذا ينقلنا لطرف ثان يقف على نفس الأرضية ، وإن كان يتبع أسلوباً مختلفاً ، وهو نظرة الغرب للمرأة ، قطاع كبير فى الغرب ينظر أيضاً إلى جسد المرأة على أنه جنس يجب إظهاره ، إن مسألة المبالغة بالاهتمام بزينة المرأة والاهتمام بالمكياج ، هذه المبالغة الشديدة بالأزياء وبالموضة المنتشرة فى أمريكا وأوروبا ويقوم بتقليدها تقليداً أعمى بعض القطاعات فى مجتمعاتنا ، هذه المبالغة فى الاهتمام بشكل المرأة ، إنما هى أيضاً تنظر إلى المرأة بوصفها جنساً يجب إظهاره. وهكذا نرى أن المهوسين دينياً من ناحية ، والمبالغين فى الاهتمام بالموضة والماكياج من ناحية أخرى ، يقفون جميعاً على أرضية واحدة ، رغم اختلاف منطلق كل فريق منهما ، فهما يمثلان وجهين لعملة واحدة .

د. فؤاد

هذه النقطة التى تذكرها الآن كانت من أهم محاور الصراع الذى خاضته حركات تحرير المرأة فى الغرب ، لأن الغرب لم يكتف بذلك وإنما ظهر عنده الشيء ونقيضه ، ولذلك كل المفكرات وكل الكاتبات وكل الفيلسوفات كانوا موجهين حملتهم أساساً ضد ما يسمى بالتشيؤ عند المرأة، وتحويل المرأة إلى سلعة أو طريقة لترويج السلع ، أنت تجد مثلاً سيارة تباع فى إعلان بجوارها فتاة جميلة ، ما العلاقة بين السيارة والبنت الجميلة ؟ مجرد الربط السيكولوجى عند المشاهد ، سوف يشده جمال هذه المرأة ، فيرتبط لاشعوريا مع السيارة ، هنا تحصل عملية داخلية تؤدى إلى تفضيله لهذه السيارة ، وهكذا حُلِلَت هذه النتائج فلسفياً بعمق فى الغرب نفسه ، وكشفوا ما فيها من فضائح فكرية وتجارية .. إلخ ، ولذلك إذا كان الغرب قد وقع فى هذه السقطة فهو أيضاً استطاع أن يتجاوزها .

د. حسين

هناك نقطة مرتبطة بالكلام الذى قلناه وبما قاله الدكتور عبد الغفار ، وهى مسألة النظرة الواحدية للمرأة بوصفها جنساً فحسب ، وإغفال كونها إنساناً له عقل ومشاعر. على هذا النحو نفسه نجد فى مجتمعاتنا الشرقية ظاهرة فى غاية الغرابة ، وتتمثل هذه الظاهرى فى النظر إلى الرذائل من خلال بعد واحد وهو البعد الجنسى ، إننا فى مجتمعاتنا الشرقية نحرص على التنديد واستهجان الرذائل الجنسية ، ويحدث نوع من التضخيم فى شأن الرذيلة الجنسية على حساب بقية الرذائل الأخرى. الكذب مثلاً رذيلة خطيرة لها عواقب غير محمودة الجانب ، هذا لا يعنى على الإطلاق أننا نقلل من أضرار الرذائل الجنسية ، ولكن يجب أن ننتبه إلى الرذائل الأخرى التى هى متعلقة بالنفاق والكذب ،

لكن المشاهَد فى مجتمعاتنا الشرقية أن الرذيلة ترتبط دائماً بالرذيلة الجنسية.

د. عبد الغفار

حتى اليوم نستطيع أن نقول ، برغم أن التعميم خطر ، أنه لم يتم فى ظل أى حضارة رد الاعتبار إلى المرأة أو النظر إليها كإنسان أولاً ، أى كشخص حر قادر على الاختيار ، قادر على الإبداع ، على الرغم من تفوق العديدات من النساء فى كل مجال ، وعندنا أيضاً فى البلاد العربية فى الأدب والفن والموسيقى ، المسألة ، أو مربط الفرس كما يقولون ، مازالت تحتاج إلى كفاح كثير ، ويا ليت الرجل ينضم إلى الكفاح أيضاً لأنه سيحرر نفسه بذلك ، متى نظر إلى المرأة كإنسان جدير بالاحترام وجدير بأن يكون جنباً إلى جنب الرجل فى الكفاح من أجل تحرير المجتمع الذى يتألف منه الاثنان.

د. غانم

اسمحوا لى بتعقيب على ما قاله د. حسين ، وهو مهم جداً ، ويدعم ما أدعيه بأن على الفلسفة أن تكون مطهرة وملتزمة. لقد طغى التحليل النفسى بطابعه الفرويدى على مجالات كثيرة فى العلم ومنها الفهم الفلسفى. لكننا نشهد فى أيامنا المعاصرة بداية مناهضة قوية للفرويدية ، وأنا من محبذى هذه المقاومة. فنحن حينما نلجأ داخل المنظومة الفلسفية ذات القوانين والمنهج والمواضيع الخاصة بها إلى تعليلات التحليل النفسى الفرويدى فإنما نضخم دوره ونسلم به علماً ثابتاً يقينياً ، وهذا ما لم يثبت ولن يثبت ، وأنا أرى شخصياً أن التحليل الفرويدى هو اعتداء على الإنسان وتشويه له ، أنه لا يساعد الإنسان أو يفهمه بل يضطهده ويقهره.

د. فؤاد

الحديث عن فكرة الجنس هنا فى واقع الأمر ليس نتيجة من نتائج التحليل النفسى ، بل بالعكس هو جزء من رؤية للأخلاق أقدم عهداً بكثير من فرويد ، لأنه جزء من رؤية معينة للأخلاق ، تتصور أن الإنسان الأخلاقى هو الإنسان العفيف جنسياً فقط ، وهذا موجود عندنا فى مجتمعاتنا العربية ، تستطيع أن تتبعه إلى الوراء إلى أكثر من ألف سنة ، ولكن أنا فى هذه النقطة بالذات أتصور أنها ليست لها علاقة مباشرة بموضوعنا الأساسى الذى نتحدث عنه ، لأن رؤيتنا للأخلاق الجنسية تمس المرأة ، وتمس الرجل فى نفس الوقت ، ونحن كثيراً ما نصدر الحكم نفسه على الرجل ، ونقول هذا رجل منحط إذا كان سوكه الجنسى غير مرغوب فيه ، بينما قد يكون الرجل أميناً وشريفاً فى كافة المجالات ، والعكس بالعكس ، نقول عن إنسان شريف وعفيف أنه لا ينظر إلى المرأة فى وجهها ، وقد يكون غشاشاً ونصاباً ..إلخ. فهذه القضية متعلقة بالقيم الأخلاقية الشرقية بشكل عام وليست جزءاً من قضية المرأة ، ورؤيتنا الفكرية والفلسفية ، لا وإنما لا ترتبط بفكرة أرسطو أن المرأة لها أخلاقها الخاصة ، والرجل له أخلاقه الخاصة ، بمعنى إننا مازلنا حتى الآن كما لو كنا نؤيد أرسطو ، إن كلمة الشرف بالنسبة للمرأة مختلفة تماماً بالنسبة للرجل ، الشرف عند المرأة يعنى الجنس ، لكن الشرف عند الرجل يمكن أن يعنى الشجاعة وأشياء أخرى وهكذا نعود إلى فكرة أرسطو أن للمرأة أخلاقها الخاصة التى ينبغى أن تتحلى بها والرجل له أخلاقه.

أ. ناهدة

أردت أن أضيف إضافة إلى ما قاله د. فؤاد عن الحركات النسائية التى تقف ضد الإعلانات التى تحدث فى أوربا. والغريب أنه حتى فى القضايا أو

المجالات العلمية والتكنولوجية الحديثة التى تخدم فيها المرأة أيضاً ، وقفوا ضدها ، أنا لَدَىَّ كتاب مخصص لمحاربة قضية الإخصاب الصناعى ، رغم أن الأطباء الذين اكتشفوا هذا الاكتشاف كان هدفهم الأساسى مساعدة المرأة فى تحقيق جزء من حلمها ، بينما المؤيدون للحركة النسائية يرون إن فى عملية الإخصاب الصناعى – وهم يتفقون فى ذلك مع الأطراف الأخرى الذين كانوا ضد الموضوع – نوعاً من الاستعباد للمرأة ، وكنت أتوقع أنهم يؤيدون هذا المجال وهذا التطور ، واكتشفت أنهم بالفعل ضده وينظرون إليه كنوع من العبودية للمرأة.

د. عبد الغفار

هناك نقطة أثارها د. فؤاد فى البداية ويخيل إلىَّ إننا لم نجب عنها ولم نثرها على الإطلاق ، وأخشى أن الوقت أدركنا وربما لا نستطيع تماماً أن نجيب عن هذا الموضوع المهم ، وهو إننا لا نستطيع أن نعمم ونقول الفيلسوف والمرأة فى كل حالة ، كل فيلسوف له ظروف شخصية أثرت على موقفه من المرأة وخصوصاً عند المتشائمين ، أخشى أن هذا الموضوع المهم جداً لا أدرى هل سيتسع الوقت لنذكر فيه بعض كلمات قليلة عن الظروف الشخصية ، لأنها مهمة جداً فى بعض الأحيان مثل "نيتشه" و "أبي العلاء المعرى" ، فى بعض الحالات على الأقل كان لها تأثير كبير فى موقف الفيلسوف من المرأة .

د. حسين

هل الظروف الشخصية أو الحياة الخاصة للمبدع سواء أكان فناناً أم فيلسوفاً تصلح أن تكون مادة للنقد ؟. . إننى أعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالنفى.

د. إمام

النقطة التى أثارها الدكتور عبد الغفار فى غاية الأهمية ، وإن كانت تحتاج إلى ندوة خاصة ، ولا أظن أنها تتعارض مع الذى نقوله ، فحين نأخذ مثلاً كراهية نيتشه للمرأة والكلام الكثير الذى قاله عنها نجد أنها مرتبطة بفلسفته، وكراهيته للضعف ، فالمرأة رمز للضعف ، ثم حين آتى وأحلل هذا الكلام وأرده إلى البيئة التى نشأ فيها ، وأنه نشأ بين خمسة نساء وأبوه توفى ولديه ٤ أو ٥ سنوات وأنه كان يحتاجه ويتمناه فى كل وقت ، كما أنه كليل البصر ، فضلاً عن ضعف صحته ومرضه المستمر ، من هنا فقد كان يتمنى أن يكون قوياً ، وانبهر ذات مرة بالجيش الألمانى وقوته .. إلخ .

د. فؤاد

وتمنى النساء ولم يطلهن .

د. إمام

فعلاً تمنى النساء ولم يطلهن ولف القارة الأوروبية وراء النساء.

د. حسين

هل انعكس هذا على إنتاجه ؟

د. فؤاد

ليس كل المجتمعين هنا سيوافقون ، لكن حقيقة الأمر من وجهة نظرى ، أننا لا نستطيع أبداً الفصل بين الأمرين ، وكل ما فى الأمر أن العلاقة تكون شديدة التعقيد ، بمعنى إنه ليست هناك علاقة مباشرة بين الظروف الشخصية للفيلسوف وبين ما يظهر فى مذهبه فعلاً ، ولكن من الأساليب الشيقة جداً فى الفلسفة أن تحاول أن تصل إلى هذه الخيوط الخفية، هذا باب فى غاية الجمال، للأسف معظم مؤرخى الفلسفة يتجاهلونه، لأنهم

يريدون أن يصوروا الفلسفة كما لو كانت شيئاً يتطور بذاته .

د. غانم

تناول هيدجر دراسة نيتشه فى مجلدين كاملين يُعْرِضُ عن هذه الأشياء كلياً لا علاقة لحياة نيتشه بمنظومته الفلسفية .

د. فؤاد

حالة نيتشه بالذات تُعَد نموذجاً صارخاً فى هذا الباب.

د. غانم

هذا ينصب على ما سبق وقلته عطفاً على ما قال الدكتور حسين وإكمالاً له ، أن نبعد عن علم النفس مهما كان علم النفس ، خاصة التحليلى منه ، شيقاً وممتعاً أن نبعده عن الحجة الفلسفية ، لأنه غريب عنها.

د. عبد الغفار

فى بعض الأحوال لا تستطيع أن تبعد عنه ، نحن تكلمنا عن نيتشه وكان من الممكن أن نتكلم عن العقاد أو المَعَرِّى ، ولكن حالة شوبنهاور بالذات ، وتأثره بالمواقف اليونانية والهندية ، دعمت موقفه ، وانعكس على فكره وحياته .

د. إمام

أنا أود أن أشكركم جميعاً فى النهاية على هذا اللقاء الممتع ، والأفكار الفلسفية الشيقة ، ونرجو أن نلتقى فى العام القادم ، إن شاء الله ، على خير، لنتحدث مرة أخرى عن المرأة والفلسفة فى مجتمعنا العربى.

obeikan.com

أرسطو .. والمرأة (*)

موضوع "الفيلسوف.. والمرأة" هو من الموضوعات بالغة الأهمية فى مسيرة التنوير ، لأنه يلقى الأضواء على وضع المرأة فى مجتمعنا العربى ، ويبيّن سبب وصفها بـ "الرئة المعطلة" أو "ذلك الجنس الآخر" الذى يختلف عن جنس الرجال. والواقع أن الصورة السيئة عن المرأة المنتشرة بيننا هى التى رسمها الفلاسفة ، وهم يعبرون بذلك عن التراث السائد فى مجتمعاتهم ، مصداقاً لقول هيجل : "إن كلاً منا هو أبن عصره ، وربيب زمانه. .. وإن الفلسفة هى عصرها ملخصاً فى الفكر". فأفلاطون وأرسطو ، وغيرهما من فلاسفة اليونان لخصوا فى أفكار نظرية مجردة "كراهية المرأة" ، ووضعها المتدنى الذى ساد التراث اليونانى. وكذلك فعل فلاسفة المسيحية : كلمنت السكندرى ، وترتليان ، والقديس جيروم ، القديس أوغسطين ، والقديس توما الأكوينى ... إلخ ، مع إضافة مسحة من القداسة الدينية على أفكار اليونان. وقل الشىء نفسه فى تراثنا العربى الذى نقل الفكر اليونانى وتأثر به تأثراً قوياً.

ولم تبدأ هذه الصورة السيئة فى التحسن إلا عندما تغيرت ظروف المجتمع الحديث سياسياً واقتصادياً ، فظهر فلاسفة من أمثال : مونتسيكو ، وجون ستيورات مل وغيرهما ، ودعوا إلى تحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها كاملة. كل هذا يوضح الأهمية البالغة للجهد الذى بذله ويبذله الدكتور إمام عبد الفتاح إمام – أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بجامعة الكويت – فى تأليف سلسلة من الكتب تحت عنوان "الفيلسوف. .. والمرأة" ، والتى تصدر عن مكتبة مدبولى ، وقد صدر منها حتى الآن : "أفلاطون ... والمرأة" بالإضافة

(*) هذا عرض لكتاب من تأليف الدكتور إمام عبد الفتاح إمام يحمل نفس عنوان هذا المقال.

إلى كتاب "نساء.. فلاسفة". إن هذه السلسلة من الكتب تهدف إلى تعديل الصورة السيئة التى استمرت فى بلادنا سنوات طويلة ، بالكشف عن أفكار روج لها فلاسفة وثيون عبروا عن تراثهم ، ثم ثبتت فى أذهاننا. فمن منا لم يقرأ أو يسمع عن طيش المرأة ، وضعف العقل عندها، وتغلب العاطفة والانفعال ، ونقص الذكاء ، وعدم قدرتها على القيادة والإدارة والحكم ، ووجوب خضوعها الكامل للرجل .. إلخ ؟! هذه كلها أفكار أرسطو لكنا أصبحنا نرددها على أنها أفكار مقدسة لا يأتيها الباطل.

ومن هنا أيضاً تأتى أهمية كتاب "أرسطو .. والمرأة" تأليف الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ، وهو العدد الثانى من سلسلة "الفيلسوف.. والمرأة" – التى سبق أن أشرنا إليها ، وقد صدر هذا الكتاب عن مكتبة مدبولى هذا العام (١٩٩٦) ، وهو يقع فى مائة وسبع وعشرين صفحة من القطع المتوسط.

كتاب "أرسطو .. والمرأة" يحتوى على بابين ، الباب الأول عنوانه: "بناء النظرية" ، ويتألف هذا الباب من فصلين ، الفصل الأول عنوانه "لبنات من الإبستمولوجيا" ، أما الفصل الثانى فعنوانه "دعائم ميتافيزيقية". ولما كانت الأفكار الميتافيزيقية عند أرسطو هى الدعامة الرئيسية فى كل ما كتب ، لذلك يعرض المؤلف فى هذا الباب الدعائم الميتافيزيقية التى استندت إليها نظرية أرسطو فى المرأة ، فإذا كانت فكرة هيراركية الكون تفيد فى إلقاء الضوء على المرأة ، ففى استطاعتنا أن نقول إن بقية الأفكار فى ميتافيزيقا أرسطو تفعل ذلك : "إذ الواقع أن المفاهيم الفلسفية الأرسطية عن الحركة والمتحرك ، أو الوجود بالقوة ، أو الوجود بالفعل ، مثلها مثل فكرة الهيولى والصورة ، وفكرة الوظيفة ، قد استخدمها أرسطو كلها فى التمييز بين الذكر والأنثى ، ونظريته فى الاختلاف بين الجنسين مغزولة بطريقة تجعلها متسقة مع نسيج فلسفته ، وليس من اليسير فصلها عن بقية "المذهب"، لكن المؤلف اكتفى بعرض

فكرتين أساسيتين تخدمان ما يريد أن ينتهى إليه ، وهما : فكرة الوظيفة ، وفكرة الهيولى والصورة .

وإذا انتقلنا إلى الباب الثانى فسنجد عنوانه "التطبيقات العملية". وقد خصصه المؤلف للحديث عن ميادين ثلاثة تتعلق بالمرأة ، وتنطبق عليها أفكار أرسطو الميتافيزيقية ، وهى الأفكار التى شكل منها أرسطو نظرية كاملة عن المرأة ، وهى على التوالى "البيولوجيا" ، و "السياسة" ، و"الأخلاق". ومن هنا قسم المؤلف الباب الثانى إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول عنوانه "الأنثى.. والبيولوجيا" ، أما الفصل الثانى فعنوانه "المرأة ... والسياسة" ، أما الفصل الأخير فجعل عنوانه "المرأة.. والأخلاق".

إن مصدر خطورة نظرية أرسطو عن المرأة هو أنها ترددت بعد ذلك بكثرة فى تراثنا العربى ، ربما لأنها وجدت أرضاً خصباً مهيأة لتقبلها ، بما تحتوى عليه من آراء مماثلة لا ينقصها سوى التنظير ، تماماً مثلما حدث فى التراث الغربى ، وفى هذا المعنى تقول "سوزان بل" S. Bell : "إن الصورة التى رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية ، وذات أثر هائل ، فقد ترسبت فى أعماق الثقافة الغربية ، وأصبحت هى الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة".

إن العبارة السابقة تصدق بنصها على التراث العربى، فلو أنك أمعنت النظر قليلاً لوجدت عبارات أرسطو وأفكاره عن سرعة انفعالات المرأة وضعفها، وعن جنس الإناث الرقيق الحساس العاطفى ، سريع التأثر ، الذى ينقاد لعوامل الشعور أكثر مما يسترشد بنور العقل ، ولهذا فهو جنس أقل استعداداً للرئاسة من جنس الرجل ، لأن الرئاسة قيادة تستوحى العقل لا الشعور.

إن أفكار أرسطو عن المرأة متناثرة فى تراثنا هنا وهناك ، حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من ثقافتنا عموماً ، تجدها عند المثقف ، والمفكر ، والفيلسوف ،

كما تجدها عند رجل الشارع سواء بسواء. وإن المرء ليعجب أشد العجب عندما يجد مفكراً عملاقاً كالإمام الغزالى يرى "أن النكاح نوع من الرق ، فهى أى (الزوجة) رقيقة له (للزوج) ، وبما أنه نوع من الرق ، فطاعة الزوج عليها مطلقة فى كل ما طلب منها فى نفسها مما لا معصية فيه"، ولا يجد فيه مشاركة وتعاطفاً ورحمة كما جاء فى نص القرآن الكريم ، حتى وصل الأمر إلى إضافة طاعة الزوج إلى مبادئ الإسلام .

وهناك أفكار أخرى كثيرة يشير إليها كتاب "أرسطو ... والمرأة" يشعر القارئ معها أن ما يقوله أرسطو ليس غريباً عنه ، بل إن رجل الشارع أصبح يردد بعضها فى يقين وثقة ، فمن منا لم يسمع عن تدنى ذكاء المرأة ، ونقص عقلها ، وعدم اتزانها فى الحكم على الأشياء ، وعدم صلاحيتها للسياسة ، أو القيادة ، أو إدارة شئون الدولة ... إلخ ، حتى إذا ما رأى أمامه نماذج لامعة من الشرق والغرب على السواء ، جحدها عامداً دون أن يجهد نفسه فى البحث عن تفسير لها ، أو يسأل : كيف تتسق مع أفكاره ؟ "مارجريت تاتشر" كانت تتربع على قمة الحكم فى إنجلترا، وكذلك كانت "أنديرا غاندى" فى الهند ، والآن "بى نظير بوتو" فى باكستان. ذلك كله لا يجعله يسأل نفسه ولو مرة واحدة : أيكون سائق سيارة "تاتشر" أو "أنديرا" أرجح منها عقلاً لمجرد أنه رجل وهى امرأة ؟ أيكون الساعى أو الحارس – الذى يقف على بابها – أقدر منها على إدارة الدولة أو أكثر اتزاناً فى الحكم على الأشياء لمجرد أنها امرأة ، وأنه رجل ؟ أى تخلف هذا !!

ويذهب المؤلف إلى أن أرسطو لا يكتفى بهذا القدر من نقائص المرأة، وإنما يضيف إليها عدم قدرتها على ممارسة الفضائل الأخلاقية المختلفة على نحو ما يفعل الرجل ، وعدم قدرتها على شغل أى منصب اجتماعى ، أو ثقافى ، أو حتى قيادة المنزل. إن مهمتها تقتصر فقط على الإنجاب ، بل

إن مسئوليتها تكون كاملة إن هى أنجبت الإناث. إن هذه الفكرة كانت ، وربما مازالت ، شائعة جداً فى مجتمعنا العربى – فى حين يكون الرجل – هو الذى ينجب الذكور. والطبيعة لا تنجب الإناث إلا إذا انحرفت عن مسارها الصحيح ، إلى آخر تلك الأفكار الأرسطية التى لا حصر لها. والتى تجدها متناثرة هنا وهناك ، يرتدى بعضها زياً دينياً ليكون أكثر عمقاً ونفاذاً، أقحموه على الإسلام الذى رفع المرأة العربية من حضيض الجهل والتخلف، بعد أن كانت تُوَرَّث مع ممتلكات الرجل ، إلى أعلى المراتب الاجتماعية ، عندما جعلها قيِّمة على نفسها ومالها وزواجها ... إلخ.

ومن الملاحظ أن الصفات المختلفة التى تُوصف بها المرأة الشرقية الآن ، كانت هى صفات المرأة فى أثينا ، فى حين أن المرأة الشرقية فى مصر القديمة مثلاً ، أذهلت المؤرخ اليونانى هيرودوت لنشاطها ومشاركتها الرجل فى جميع مناحى الحياة : فى البيت ، والتجارة ، والزراعة ، والأسواق، والسياسة، حتى أنها وصلت إلى أعلى المناصب السياسية عندما حكمت البلاد بمفردها ، أو مع زوجها.

ويقول ديودور الصقلى : "إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى المجيدة ، التى خلفتها فى مصر الإلهة : إيزيس.. "، وكانت الزوجة جليلة القدر ، حتى أن الملك لا يكاد يُصَوَّر على الآثار إلا مع زوجته ، بل كان أغلى قسم عند "إخناتون" أن يقسم بنفرتيتى – زوجته – التى لم تنجب له سوى البنات ، ومع ذلك رفض أن يتزوج بأخرى لينجب الولد ، غير أن ذلك لم يكن مقتصرًا على الملوك الفراعنة ، أو الطبقة العليا فى المجتمع المصرى فحسب ، بل كان كذلك بالنسبة لجميع الطبقات "كانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العامة ، وهذا مظهر لم يعهده العالَم القديم ، ولا الشرق الحديث ، فالمصرى كانت امرأته بجانبه أينما وُجِدَ.

ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، فالزوج المصرى وزوجته يجتازان الحياة واليد فى اليد ، كما نرى فى الصور التى على القبور".

ومعنى ذلك أن بعض المجتمعات الشرقية ، قديماً ، كانت أكثر تحضراً من المجتمع اليونانى الذى وضع المرأة فى مركز متدن للغاية ، وجعل الرجل هو السيد المسيطر الآمر الناهى ، وهو وضع عبرت عنه فلسفة أفلاطون ثم قننته فلسفة أرسطو ، وإذا كانت المجتمعات الغربية قد تخلصت شيئاً فشيئاً من هذه الأفكار الأرسطية ، فإن المجتمعات الشرقية لا تزال تحافظ عليها ، ضنينة بها ، كما لو كانت كنزاً لا يفنى – وهى كذلك بالفعل بالنسبة لمجتمع الذكور – بل إنها جاهدت لتضفى على هذه الأفكار شيئاً من القداسة !

وفى خاتمة كتابه يقول المؤلف : "كثيراً ما يقال إن العلاقة بين الفيلسوف والمرأة كانت على مر العصور علاقة سيئة مضطربة ، على خلاف علاقتها بالشاعر ، مثلاً ، أو الفنان بصفة عامة. وقد يقال فى تفسير هذه العلاقة السيئة : إن الفيلسوف يعمل فى حقل المجردات ، ويحلق فى سماء المثل ، فى حين أن المرأة تميل إلى الاهتمام بالمحسوسات والارتباط بأرض الواقع".

إن هذا التبرير كان يمكن أن يصدق لو كنا نتحدث عن علاقته بزوجته. أما أن يكون رأيه فى "المرأة" بصفة عامة سيئاً بحيث لا يرى فيها سوى موجود أدنى من الرجل ، مهمته فى هذه الدنيا خدمته ورعاية أولاده ، وربما تخليده عن طريق الإنجاب – كما يذهب أرسطو – فلابد من تفسير آخر هو خضوع الفيلسوف ، فى الأعم الأغلب ، خضوعاً يكاد يكون تاماً لوضع المرأة الاجتماعى فى عصره. وربما كان جانب من تفسير هذا الخضوع أنه يشعر بما لهذه الفكرة المتدنية عن المرأة من نفع ، شأنه شأن الرجل بصفة عامة ،

فوضع المرأة فى زاوية من زوايا المنزل يُمَكنه من التفرغ لبحوثه المجردة ، وتحليقه فى السماء كما يشاء .

والملفت للنظر أن أرسطو كان "يُنَظِّر" وضع المرأة المتدنى فى عصره ، رغم وجود سيدات ، فى هذا الجو الخانق ، على درجة كبيرة من الذكاء ، ورجاحة العقل ، وقوة البصيرة ، فى مجتمع كان يقتل مواهب النساء جميعاً ، ولا يعترف بهن إلا خادمات للأب أو الزوج ، أنهن قاصرات لا يُجِدن سوى أعمال المنزل. ومع ذلك فقد عرف أرسطو نساء لم يكن من هذا الطراز : عرف فى بيللا Pella عاصمة مقدونيا أمرأة على درجة كبيرة من الذكاء ، ورجاحة العقل وقوة الشخصية هى أوليمبياس Olympias والدة الإسكندر التى أُتهِمَتْ بأنها كانت وراء المؤامرة التى أطاحت بزوجها الملك فيليب لتمكن ابنها من العرش. ولقد كانت هذه المرأة الحديدية تقف وراء أبنها تبث فيه روح العظمة ، والقوة ، والمجد ، وتؤنبه كلما وجدت فيه ضعفاً أو تردداً ، وتحتضنه فى الوقت الذى كان فيه أبوه "فيليب" مشغولاً عنهما بخمره ونسائه ، فها هنا نجد مثلاً حياً لسيطرة الانفعالات وغلبة الشهوات على الرجل ، ورجاحة العقل ، والفكر المتزن عند المرأة ! ولقد عرف أرسطو هذه المرأة عن كثب إذ كانت تزوره لتطلع على أحوال المدرسة التى يُعلَم فيها الإسكندر وبعض أمراء البلاط ، وكان المعلم الأول يهرول مسرعاً للقائها عندما تصل عربتها الملكية ، ومع ذلك لم يراجع أفكاره عن المرأة قط. ومن المفارقات الطريفة – التى يشير إليها الدكتور إمام– أن أرسطو لم يكن موضع إعجاب من جانب "أوليمبياس" ولم تقتنع به، بل قالت عنه : "ليس عنده ما يقوله من أفكار خلاَّقة ، وهو نحيل ألثغ".

عرف أرسطو أيضاً الشاعرة سافو Sappho التى سماها سقراط بالجميلة ، وكان بذلك يعبر عن عبقريتها ، وقال عنها أفلاطون : إنها الربة

العاشرة للفنون ، كما عرف المرأة الذكية البارعة ، التى كانت حديث أثينا "أسباسيا" Aspasia رفيقة بركليز حاكم أثينا الشهير – التى يروى المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة فى أثينا ، فقد كان يحضر صالونها الأدبى : سقراط ، وأفلاطون ، وفيدياس ، وأنكساجوراس ، وسوفكليس ، ويوريبيدس – حتى ليندر أن نجد طوال التاريخ امرأة كان لها "صالون" أدبى على هذا المستوى الرفيع. بل إن بعض الشعراء كانوا يسمونها "هيرا" أو الإلهة الملكة .

عاصر أرسطو هذه الشخصيات النسائية اللامعة ، كما استمع بالقطع ، إلى حديث أفلاطون عن ديوتيما Diotima ونظريتها فى الحب التى رواها فى محاورة "المأدبة" ... إلخ. لكن أرسطو – كما يقول المؤلف – غض الطرف عن هذه النماذج المضيئة اللامعة فى عصره ، ليأخذ بفكرة رجل الشارع ، وراح يبحث لها عن تبريرات وأسانيد ليقيم نظرية فلسفية متكاملة يستمد جوانبها الأساسية من أفكاره الميتافيزيقية ، التى اعتقد أنها حق لا ريب فيه ، ثم أخذ يطبقها فى ميدان البيولوجيا ، والسياسة ، والأخلاق ، ليجعل من المرأة "رجلاً ناقصاً" ليس لها دور فى هذه الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد. وأخطر ما فى نظرية أرسطو أنه يذهب فيها إلى أن الطبيعة – التى لا تفعل شيئاً باطلاً – هى التى جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع ، ولا سيما المجتمع الذكورى ، دخل فى تحديد هذه الدونية. إن حرص أرسطو على التقليل من شأن المرأة ، يُذكرنا بعبارة برنارد شو عن وضع الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية ونظرة الرجل البيض إليهم ، يقول شو : "الرجل الأمريكى يهبط بالزنجى إلى مستوى ماسح الأحذية ، ثم يستنتج من ذلك أن الزنجى لا يصلح إلا لمسح الأحذية".

إن أخطر ما فى نظرية أرسطو هو تأثيرها الهائل وسيادتها على الفكر

البشرى طوال العصور الوسطى ، مسيحية وإسلامية معاً ، وغلبتها على عقول المفكرين ، أو قل : إنها لاءمت هواهم ، وسايرت عاداتهم وتقاليدهم وأعطتهم الأساس الفلسفى الذى يُبقى وضع المرأة متردياً ، فلم تتغير هذه الأفكار إلا بعد أن تغير المجتمع الأوربى ولاسيما فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، وكان أول من حمل لواء الأفكار الليبرالية الجديدة هو الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت مل J. S. Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فدعا بقوة إلى تحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية عندما كان نائباً فى البرلمان.

أما قبل ذلك فقد ظلت النظرية الأرسطية مسيطرة وإن اصطبغت فى العصور الوسطى بصبغة دينية. فربط الفلاسفة المسيحيون بين المرأة ، لاسيما جسدها ، وبين الخطيئة الدينية ، وأصبحت المرأة رمزاً للجنس ، ودعوة للشهوة ، و "رسول الشيطان" أو "بوابة جهنم" وأساس الرذيلة ، والمنزلق الخطر الذى ينبغى على الرجل أن يتجنب الوقوع فيه .

يقول مؤلف الكتاب : "وفى استطاعتك أن تتلفت حولك لتجد معظم الأفكار الأرسطية وقد اصطبغت بصبغة دينية تارةً أو اجتماعية تارةً ، وهى فى الأعم الأغلب تدور حول "الجنس". فنحن لا يشغلنا فى حياتنا شىء قدر ما تشغلنا المسائل الجنسية التى جعلنا المرأة تجسيد لها ، وكأنها تمارسها منفردة ، وربما يعود ذلك إلى ما نعانيه من كبت جنسى ، أو قصور فى فهمنا لهذه الغريزة ، أو الممارسات السيئة لإشباعها".

إذا كانت "البيولوجيا" عند أرسطو تذهب إلى أن العنصر اللاعقلى فى النفس هو الذى يسيطر على العنصر العقلى عند المرأة ، ولهذا يغلب عليها سيادة المشاعر والانفعالات والشهوات .. إلخ. فإننا لا نزال نردد هذه الأفكار بغير وعى دون أن ندخل فى حسابنا العامل الحاسم للتربية ، الذى يضع المرأة

فى مجتمعنا وغيره من المجتمعات ، فى قالب خاص. ولقد أثبتت "مارجريت ميد" M. Mead عالمة الانثربولوجيا الشهيرة ، فيما أجرته من بحوث على المجتمعات البدائية أنه لا توجد فوارق طبيعية على الإطلاق بين الرجل والمرأة ، أو ما يسمى "بطبيعة الأنثى والذكر" سوى الفروق البيولوجية بالطبع. وأن المسألة تُرَد بكاملها إلى التربية الاجتماعية ، فضلاً عما نشاهده فى بعض الرجال من سيطرة الانفعالات ، وغلبة للشهوات ، قد لا نجدها عند بعض النساء .

إذا كانت "السياسة" عند أرسطو تذهب إلى أن المرأة لا تصح للقيادة ، أو الرئاسة ، ولا "الحكم" أو الاشتراك فى إدارة الدولة ، أو القضاء ... إلخ ، فإننا كثيراً ما نردد هذه الأفكار ، وننتهى إلى أن كل ما تصلح له المرأة ، إذا كانت فاضلة وصاحبة امتياز ، أن تكون "ربة منزل" ، بل كثيراً ما نقول ذلك باسم الإسلام العظيم الذى أشاد برجاحة عقلها وقدرتها على القيادة. ويستشهد المؤلف ببعض الآيات القرآنية لتدعيم وجهة نظره ، انظر مثلاً ما يرويه القرآن الكريم عن "بلقيس" تجد أنه يقول لنا : إنها كانت ملكة، لكنها لا تحكم منفردة عندما تُقْدِم على اتخاذ قرار ، بل تدعو علية القوم للتشاور معها وتبادل الرأى ، وتضع مبدأ سياسياً مهماً للحكم : هو أنه لا يجوز اتخاذ قرار خطير إلا بعد روية وتدبر وإمعان : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢ النمل) ، بل إن الآيات الكريمة تبيّن لنا بعد ذلك مباشرةً أن مَنْ دعتهم من القوم كانوا أشد منها اندفاعاً ، وأسرع انفعالاً وتهوراً ، عندما راحوا يلوحون ، فى الحال باستخدام القوة : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.(33 النمل) ، لكنها كانت أعظم تعقلاً وأكثر تريثاً ، فرأت أن تجرب أمراً آخر هو الالتجاء إلى الهدايا ... إلخ. هذا ما يقوله الدين لمن شاء أن يقرأ ويعقل.

والأخلاق عند أرسطو تجعل للمرأة أخلاقاً خاصة ، وفضائل مختلفة عن فضائل الرجل وأخلاقه ، ونحن بدورنا نفعل ذلك ، فأخلاقنا وفضائلنا تدور ، فى الأعم الأغلب ، لاسيما بالنسبة للمرأة ، حول السلوك الجنسى ، وكلمة "الشرف" عند المرأة لا نعنى بها سوى العلاقات الجنسية ، فهى تفقد "شرفها" إذا مارست الجنس بطريقة غير مشروعة : فمن تسرق ، أو تتاجر فى المخدرات ، أو تغش يمكن أن تفعل ذلك وهى تحافظ على شرفها ، أما الرجل فيظل "شرفه" مصاناً مهما يكن له من سلوك جنسى مشين ، مادامت زوجته أو أخته ... إلخ مستقيمة السلوك .. أى تخلف هذا !

وفى السطور الأخيرة من كتابه "أرسطو .. والمرأة" ، يرصد مؤلف الكتاب ظاهرة بالغة الغرابة تتفشى فى مجتمعنا ، إذ يقول : "نحن ، فى الأعم الأغلب ، نغض الطرف عن كثير جداً من الرذائل الإنسانية : كالكذب، والغش ، والجبن ، والأنانية ، والخداع ... إلخ ، لأن الفضائل الإنسانية التى تكون للإنسان بما هو إنسان لا أهمية لها عندنا". ويتساءل الدكتور إمام: "أنخطئ ، إذن ، عندما نقول : إن هيراركية الأخلاق الأرسطية مازالت مسيطرة علينا ؟ ". ثم يختتم المؤلف كتابه بالعبارة الآتية :

"إننا لابد أن نقول فى النهاية ، إن ذلك كله لا يعنى أننا قمنا بنقل "نظرية أرسطو عن المرأة" ، بل نريد أن ننتبه جيداً إلى أن كل ما نقوله عنها يشبه تماماً ما كان يقوله فلاسفة اليونان ، ولا سيما المعلم الأول ، واحتمال التأثر وارد بالطبع ، لكن الأرجح أن موقف الرجال فى المجتمعات الذكورية واحد ، وأنه يستفيد كثيراً من الوضع المتدنى للمرأة ، تماماً كما كان الأحرار يستفيدون من وجود نظام الرق فى مجتمعاتهم ، ولا يهم المرء بعدئذ إن كان بذلك يعمل على وجود رئة معطلة ، ومُعَوِقة للتقدم ، كان يمكن للمجتمع بأسره أن يستفيد منها.

obeikan.com

نساء. .. فلاسفة (*)

أمران ، فى هذا الكتاب ، يثيران دهشة القارئ حتى لو كان من أصحاب النظرة العجلى. أما الأمر الأول فهو عنوان السلسلة التى صدر فيها الكتاب – بوصفه العدد الرابع – وأعنى به "الفيلسوف. .. والمرأة". فقد اَلِفَ القارئ أن يكتب له الكتَّاب والمؤلفون عن "الشاعر. .. والمرأة" ؛ "والفنان. .. والمرأة" ، وربما المثقف – بصفة عامة – والمرأة. أما "الفيلسوف. .. والمرأة" ، وليس فى كتاب – بل فى سلسلة من الكتب – فهذا شىء لم يألفه القارئ قط.

أما الأمر الثانى الذى يثير دهشة القارئ أيضاً فهو أن تكون المرأة فيلسوفة ! وكيف يمكن له أن يتقبل ذلك فى سهولة ويسر فى الوقت الذى تموج فيه الساحة الثقافية من حوله بآراء لا حصر لها نمت عن "الضعف العقلى للمرأة"، و"سرعة العاطفة والانفعال" و "كراهية التجريد ، والبحث النظرى الخالص" والاهتمام بالحسيات ، والعينيات والماديات ... وما إليها ، فكيف يمكن أن يأتى اليوم كتاب ليتحدث عن "نساء. .. فلاسفة" فى العالَم القديم أيضاً. .. ؟ كيف يقول لنا إن زوجة فيثاغورس هى التى تولت إدارة المدرسة بعد زوجها ؟ وكيف ؟. . وكيف ؟. . لكن رغم دهشة القارئ ، فهذا ما حدث بالفعل فقد صدر للأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام رئيس قسم الفلسفة بجامعة الكويت كتاب جديد عن دار مكتبة مدبولى بالقاهرة عنوانه "نساء. . فلاسفة" يعرض فيه على مدى ثمانية فصول – وحوالى ثلاثمائة

(*) نشر هذا المقال بمجلة "سطور" ، العدد السابع عشر من إبريل ١٩٩٨، وهو عرض لكتاب الدكتور إمام عبد الفتاح إمام "نساء. .. فلاسفة".

وسبع عشرة صفحة من القطع المتوسط – لمجموعة من "النساء. .. الفلاسفة" فى العالمَ القديم ، فى محاولة من جانبه لإثبات رجاحة عقل المرأة، وقدرتها على التفكير العلمى التى لا تقل عن قدرة الرجل ، ولاسيما فى مجال التفلسف الذى يبدو حقلاً مغلقاً على الرجال وحدهم ، وبذلك تسقط الفكرة السائدة والساذجة معاً عن "العقلية النسائية الضعيفة والناقصة"، وتنتهى إلى إلغاء تلك الفكرة العقيمة التى تشطر العقل البشرى شطرين "رجالى" و"نسائى".

والطريف أن المؤلف يُصَدِّر المدخل العام للكتاب بآية من القرآن الكريم عن بلقيس ملكة سبأ تشهد برجاحة عقلها ، وبعبارة لأرسطو يتحدث فيها عن ضعف عقل المرأة وعدم قدرتها على الرئاسة. ويقول المؤلف إننا تركنا الآية المضيئة التى تشهد بقدرة المرأة على إدارة دفة الحكم ، وأخذنا بعبارة أرسطو الوثنى لنضفى عليها شيئاً من القداسة. ويؤكد المؤلف أن من يذهب إلى أن الدين يؤيد فكرة أرسطو الساذجة عن دونية المرأة إنما يضل ضلالاً بعيداً.

هذا الكتاب هو دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها ، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف ، إنه دعوة لنبذ الفكرة الساذجة التى تقول "إن عقل المرأة أقل من عقل الرجل" ، أو أن تفكيرها تغلب عليه العاطفة والانفعال ، وأن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور وتنقصها الروية والتدبر. يكشف الكتاب عن زيف هذه الفكرة التى قال بها أرسطو – المعلم الأول – ثم شاعت فى العالمين العربى والغربى على حد سواء ، وأصبحت هى الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة ، وأصبحت المرأة "رجلاً ناقصاً" لا دور لها فى الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد.

وأخطر ما فى نظرية أرسطو أنه يذهب إلى أن "الطبيعة التى لا تفعل

شيئاً باطلاً" هى التى جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية ، وليس للعادات والتقاليد أو أفعال المجتمع – لاسيما المجتمع الذكورى – دخل فى تحديد هذه الدونية.

ضرورة الفحص النقدى للأفكار والتعميمات العامة :

يستعين المؤلف بشواهد التاريخ لإثبات أن هناك "نساء فلاسفة" ، لأننا إذا أثبتنا أن هناك امرأة واحدة تفلسفت ، فإننا نهدم بذلك آلاف الأمثلة الإيجابية التى يقول بها أصحاب الفكرة الأرسطية المتخلفة التى تغمض العين حتى لا ترى نماذج مضيئة لنساء راجحات العقل صائبات التفكير. ويرى الدكتور إمام عبد الفتاح إمام أنه لا يكفى للبرهنة على صحة التعميم أن يأتى مُؤيداً بحالات كثيرة وعديدة ، إذ إن حالة واحدة معارضة (سلبية) تكفى لنقضه ، فالحالات السلبية التى تنقض هى عنده أهم فى البحث العلمى من الحالات الإيجابية المؤيدة مهما كثرت وتعددت. ذلك لأن اكتشاف الشواهد المؤيدة لنظرية ما (أو لتعميم معين) يكاد لا يكون له شأن إلا إذا حاولنا اكتشاف ما يكذبها وفشلنا فى هذه المحاولة ، لأننا إذا لم نتخذ موقفاً نديا ، فسوف نعثر دائماً على ما نريد : أى أننا سنبحث عما يؤيدها وسنجده ، وسنصرف النظر عن كل ما يمكن أن يهدد النظريات أو التعميمات التى نفضلها فلا تقع عليه أبصارنا. وهكذا يسهل الحصول على ما يبدو لنا بينة هائلة على صدق نظرياتنا. ولو نظرنا إلى هذه النظريات نظرة نقدية لتبين لنا كذبها .

من هنا تأتى أهمية المنهج الذى اتبعه المؤلف ، لأن النتيجة العملية لهذا المنهج هى هدم الفكرة الشائعة عن ضعف المرأة ، ونقص العقل عندها، وغلبة الانفعال والعاطفة عليها، وسيطرة التهور والاندفاع ... إلخ، فتلك كلها أوهام خلقها "عقل الرجل" ويبددها الواقع الحى الذى نعيشه .

استبداد الرجل وتخلفه أدى إلى تخلف المرأة :

الواقع أن الحملة التى تُشَنُّ ضد "عقل المرأة" ، والزعم بعدم قدرتها على التفلسف ، والقول بأن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة من الرجال. هذه الحملة تتغافل الدور السلبى الذى لعبته الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية التى منعت المرأة من التفلسف ، وليس بسبب "نقص" أو "خلل" فى قدرتها العقلية ، الظروف التى أحاط الرجل بها المرأة هى التى مكنته من استعبادها وحصارها فى زاوية منعزلة من الدار ليطلق عليها لفظ "الحريم" ، وعندما خضع الرجل لطغاة عبر التاريخ حرَّموا عليه التفلسف على نحو ما فعل الإمبراطور الرومانى "نيرون" وغيره ، اختفت الفلسفة أيضاً حتى بالنسبة للرجال ، ومعنى ذلك أن الرجل لو كان فى وضع المرأة، ولو مر بهذه الظروف نفسها ، لكان هو الأدنى والأقل عقلية أو العاجز عن التفلسف.

ويؤكد المؤلف أنه رغم خضوع النساء الطويل للرجال ، واستعبادهن وعزلهن عن الحياة العامة ، ونقص فرص التعليم أمامهن ، بل عدم إتاحة الفرصة على أى نحو للمشاركة فى ثقافة العصر ، رغم ذلك كله نجد نساء لامعات ، لهن دور فى "البحث عن الحكمة" منذ فجر الفلسفة. صحيح أنه دور صغير وبسيط ، لكنه يثبت – على أية حال – قدرتهن على القيام بدور أكبر إذا ما لاحت الفرصة ، وتغيرت البيئة المناوئة .

شواهد التاريخ تؤكد وجود "نساء فلاسفة" :

سوف نجد فى هذا الكتاب عبارات منسوبة إلى النساء الفلاسفة فى العالَم القديم – لاسيما قبل ظهور المسيحية – وهى عبارات قليلة وبسيطة ، أو قل : شذرات متناثرة هنا وهناك ، لكنها تعبر عن فكر ورأى وموقف ، ومن ثمَّ فهى ضرب من التفلسف لا يمكن أن يحتج القارئ بأنها مجرد "عبارات" قليلة

وبسيطة ، فهكذا كانت الفلسفة فى بدايتها : فلم يُعْرَف عن طاليس – أول الفلاسفة – سوى أنه قال "الماء هو أصل الأشياء جميعاً" وأن "العالمَ مملوء بالآلهة" ، وهناك من قال بأن أصل الأشياء هو الهواء ، أو النار ، أو العناصر الأربعة. .. إلخ ، مجرد عبارت قليلة وبسيطة ، ومع ذلك كانوا فلاسفة وأصحاب مذاهب فلسفية "طبيعية" أحياناً ، و "ميتافيزيقية" أحياناً أخرى ، و "أخلاقية" أحياناً ثالثة.

وكما كانت هناك كتب للفلاسفة من الرجال قد فُقِدت ، ولم يبق منها سوى فقرات أو شذرات ، فإن هذا ما حدث بالضبط مع النساء الفلاسفة. فلم يبق لنا مثلاً من كتابات "إيزارا" Aesara سوى شذرات قليلة من كتابها: "عن الطبيعة البشرية" On Human Nature. وإذا شعر القارئ أن النصوص قليلة للنساء الفلاسفة فى العالمَ القديم ، فعليه أن يكون على بيِّنة أن تلك هى الحال نفسها بالنسبة للفلاسفة من الرجال فى الفلسفة القديمة ، وأن سقراط نفسه لم يكتب حرفاً واحداً ، وأننا عرفنا آراءه وأفكاره مما قاله تلميذه أفلاطون بصفة خاصة .

وكما أن تاريخ الفلسفة الغربية يبدأ فى اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد – بالمدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) – فكذلك يبدأ تاريخ النساء الفلاسفة فى القرن السادس قبل الميلاد بالمدرسة الفيثاغورية. فقد حظيت المرأة الفيثاغورية بفرص هامة مكنتها من القراءة والكتابة ، وقبل كل شىء من التفكير والمناقشة وإعمال العقل. ووقفت على قدم المساواة مع الرجل. وكان الاعتقاد السائد عند "الجماعة الفيثاغورية" أنه على الرغم من أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل ، فإنها لا تقل أبداً ، لا من حيث القدرة ، ولا من حيث القيمة.

ومن هنا فقد كانت النساء الفيثاغوريات مثقفات ، لهن اهتمامات فكرية

وأدبية بارزة ، وقد عشن إبان تأسيس المدرسة الفيثاغورية الأولى ، وكانت ثيانو Theano زوجة فيثاغورس أشهرهن جميعاً. وقد قامت مع بناتها الثلاث : أريجنون وميبا Myia ، ودامو Damo ، برئاسة المدرسة الفيثاغورية وإدارتها بعد وفاة مؤسسها فيثاغورس.

النساء الفلاسفة فى المدرسة الفيثاغورية :

ولما كانت المدرسة الفيثاغورية هى التى أفسحت المجال لتعليم المرأة ومشاركتها فى الحياة العقلية والمسائل الفلسفية ، فقد خصص المؤلف الفصل الأول من كتابه لهذه المدرسة ، وجعل عنوانه "فيثاغورس .. ومدرسته" ، وتحدث فيه عن نشأة المدرسة الفيثاغورية فى محاولة للتعرف على فيثاغورس مؤسس هذه المدرسة ، مؤكداً أن النساء نشيطات للغاية فى المدرسة الفيثاغورية ، وقد لعبن دوراً أساسياً فى تطور الفيثاغورية الأولى. ويشير "ديوجينز اللايرتى" فى كتابه عن "حياة مشاهير الفلاسفة" إلى تأثر فيثاغورس ببعض الشخصيات النسائية ، ويؤكد "أرستونكسويس" Aristonexus أن فيثاغورس قد استمد الجزء الأكبر من نظرياته فى الأخلاق من "ثمستوكليا" Themistoclea التى كانت تعمل كاهنة للإله أبوللو فى دلفى.

أما الفصل الثانى والذى عنوانه "نساء فلاسفة ... من الفيثاغورية المبكرة"، فقد عرض المؤلف خلاله لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيثاغورية المبكرة التى ظهرت فى القرن السادس قبل الميلاد، وهن:-

ثيانو	Theane
اريجنوت	Arignote
ميبا	Myia

حاولت الأولى أن تفسر عبارة فيثاغورس "العالَم عدد ونغم" التى أساء العالَم اليونانى فهمها ، حتى ذهبوا إلى القول بأنها تعنى خلق الأشياء المادية من الأعداد ، وهو قول ظاهر البطلان فى رأيها ، لأن فيثاغورث كان يعنى أن الأشياء خُلِقَت على غرار الأعداد ، ومن ثم اهتمت بتصور "المحاكاة" التى سيهتم به أفلاطون أيضاً فيما بعد.

أما الثانية "أريجنوت" فقد حاولت دراسة طبيعة العدد ، أو الماهية الأزلية للعدد التى هى العلة الأولى لما يوجد فى الأرض والسماء وما بينهما. لكن العدد هنا لا يعنى سوى الهرمونيا أو الانسجام بين الأشياء ، أو قل العلاقات أو النسب الرياضية بين الأشياء ، فهى التى تمكننا من التمييز بين الأشياء والتفرقة بينها. ومن ثم كان "العد" أو "الإحصاء".

أما الثالثة "ميبا" فقد حاولت تطبيق الهرمونيا نفسها فى عالَم الأسرة ولاسيما فى تربية الطفل ، وهى الفكرة التى لخصتها فى تصور "الاعتدال" أو "الوسط" ، فرأت أننا فى تربيتنا للطفل ينبغى أن نراعى الوسط فى كل شىء فى مأكله ، وملبسه ، وفى درجات الحرارة. .. إلخ. وهذا واضح من رسالتها إلى "فيتس" التى تسودها نغمة قوية من الاعتدال العملى ، وكأنها تسبق فكرة أرسطو الشهيرة فى ميدان الأخلاق ، والتى سميت بالوسط الذهبى أو القاعدة الذهبية التى تقول "خير الأمور الوسط. . فلا إفراط ولا تفريط ، أو أن الفضيلة هى وسط بين رذيلتين". وكانت "ميبا" تشرح فكرتها فى بساطة وتطبقها على مثال عملى حى هو كيفية العناية بالوليد الجديد.

أما فى الفصل الثالث فيعرض المؤلف لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة التى ظهرت بعد نحو قرنين من الفيثاغورية المبكرة ، وهن:

١- "إيزارا اللوكانية" التى مدت فكرة القانون الطبيعى ليشمل ثلاثة مجالات

هى : مجال الفرد ، ومجال الأسرة ، ثم مجال المؤسسات الاجتماعية .

٢- "فينتس الاسبرطية" التى ألفت كتاباً عن "الاعتدال عند النساء" لم يبق لنا منه سوى شذرتين ، وهى تهتم فى الشذرات المتبقية من كتابها بتوجيه المرأة إلى الاعتدال فى كل شىء سواء فى الطعام ، أو الشراب ، أو اللياقة البدنية ، أو حتى فى الطقوس والشعائر الدينية .

٣- والفيثاغورية الثالثة هى "بركتيونى الأولى" التى ألفت كتاباً بعنوان "هارمونيا النساء" ، وهى غير "بركتيونى الثانية" التى كتبت كتاباً بعنوان "سوفياس" Sophias أى عن الحكم ، وربما كان الموضوع الرئيسى فى هذا الكتاب هو واجبات المرأة فى الأسرة ولاسيما تجاه والديها أو زوجها أو أولادها.

يرى المؤلف أن الهدف من استعراض هذه النماذج هو بيان قدرة المرأة على التفلسف ، بغض النظر عن الموضوع الذى تخضعه للتفكير. كما يعتقد المؤلف أن المرء سوف يلمح ما لدى المرأة - حتى فى هذه الأوضاع المتردية - من قدرة عقلية ، ويكفى أن نقول إن "بركتيونى الثانية" كانت تدعو فى كتابها عن "الحكمة" إلى التأمل النظرى فى الكون ، كما أن "ثيانو الثانية" كانت تقرأ محاورات أفلاطون مع زميلاتها ، ولاسيما محاورة "بارمنيدس" البالغة الصعوبة.

إسبازيا.. معلمة الخطابة

خص المؤلف "إسبازيا" معلمة الخطابة بالفصل الرابع من كتابه "نساء... فلاسفة" ، فنجده يتحدث فى بداية هذا الفصل عن حياتها، ثم خطاب بركليز الجنائزى ، ثم عن "إسبازيا فى محاورة مينكسينوس" . كانت "إسبازيا" واحدة ضمن المثقفين اللامعين ، والمفكرين المؤثرين فى حياة أثينا ، وأنها صاحبة عقل لماح فى الموضوعات السياسية التى تهم الشعب، فضلاً عن اهتمامها

بفن الخطابة. ويعرض المؤلف لحياتها فيقول :

"لا نعرف شيئاً عن ميلادها ، لكنها ماتت على الأرجح عام ٤٠١ ق.م وهى مواطنة مالطية فى "أيونيا" ، وصلت إلى أثينا حوالى عام ٤٥٠ ق.م ، وافتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة – فيما يقول ول ديورانت – خروج النساء من عزلتهن ، واختلاطهن بالرجال، وتربيتهن تربية عالية ، والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا، وأرسل كثير من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها "ص١٢٢" ويبدو أنها كانت تلقى محاضرات كان يستمع إليها الرجال أيضاً ، ومن بينهم بركليز، وسقراط، وأكبر الظن أن أنكساجوراس نفسه ، ويوريبيدس والفبيادس ، وفيدياس المثَّال كانوا يستمعون إليها ، أو كانوا يحضرون صالونها الأدبى، إذ يروى المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة فى أثينا ، حتى أن شعراء الكوميديا كانوا يسمونها "هيرا" أو الإلهة الملكة ، زوجة رب الأرباب ، على اعتبار أن بركليز هو زيوس نفسه. وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها، ويقول إنها هى التى علمته فن البيان ، ويعزو إليها الفضل فى إنشاء الخطبة الجنائزية التى ألقاها بركليز بعد الخسائر الأولى فى حرب البلبونيز". (صفحات ١٢٢ – ١٢٣).

خلدت الوثائق التاريخية "إسبازيا" فى عملين بارزين : أولهما ، محاورة مينكسينوس Menexenus لأفلاطون ، وثانيهما ، اللوحة الزيتية من الجص البارز الموجودة الآن على بوابة مكتبة جامعة أثينا ، واللوحة تصورها فى صحبة سقراط وفيدياس Phidias المثَّال وهو يمسك فى يده بالأزميل ، وسوفكليس ، وبركليز قائد حرب البلبونيز ، وأفلاطون عندما كان شاباً ، وأنتستين ، وأنكساجوراس والقبيادس الوسيم ... إلخ (صفحات ١٢٤ – ١٢٥).

أصبحت "إسبازيا" ملكة أثينا غير المتوجة ، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة "مثل الحرية العقلية والأخلاقية التى يتطلعن إليها ، والتى تثير حماسهن" ، وكان ذلك كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأثينيين ، ويبدو أن تهمة الإلحاد التى وُجِهَت إليها، والتى حُوكِمَت بسببها أمام ألف وخمسمائة من القضاة كانت دليلاً على أن البعض نظر إليها بوصفها مصدر تهديد سياسى وعقلى فى الحياة الثقافية الأثينية.

ديوتيما.. معلمة سقراط

ناقش المؤلف فى الفصل الخامس شخصية "ديوتيما" ، وأثبت أنها شخصية حقيقية ، وأنها كاهنة وفيلسوفة من "مانتينيا" Mantinea ، وأنها عاشت حوالى عام ٤٠٠ ق.م ، وأنها زارت أثينا عندما استدعاها الأثينيون لمساعدتهم فى الحماية من مرض الطاعون ، وأنها التقت بسقراط أثناء هذه الزيارة. ثم عرض المؤلف بعد ذلك لنظريات "ديوتيما" فى "الحب" و "الخلود" و "الجمال" ، مبيناً فى النهاية كيف أن هذه النظريات تختلف فى كثير من الجوانب عن فلسفة أفلاطون، كما أنها تتعارض مع هذه الفلسفة فى جوانب هامة (مثل خلود النفس ، وتناسخ الأرواح ... إلخ) ، والواقع أن "ديوتيما" تختلف عن أفلاطون فى كثير من المفاتيح الأساسية لفلسفته ونظرياته مثل : تصوره للخير ، وتصوره للخلود ، وتصوره لتناسخ الأرواح ، ونظريته فى الهوية الشخصية ، ونظريته فى المثل ... إلخ.

ويؤكد المؤلف على أن "ديوتيما" كانت واحدة من "النساء ... الفلاسفة فى العالَم القديم" ، وأنها تبرهن – كما سوف تبرهن المرأة فى العالَم الحديث – على أنها ليست أقل من الرجل فى قدرتها العقلية ، ولا فى استعدادها للتفلسف. (ص ١٩١).

جوليا دونا. .. أو جوليا الفيلسوفة :

كان الفصل السادس من هذا الكتاب من نصيب "جوليا دونا" أو "جوليا الفيلسوفة" ، وقد بدأ المؤلف أولاً فى سرد تفاصيل حياة هذه المرأة اللامعة، ثم حاول بعد ذلك أن يجيب عن السؤال الآتى :

لِمَ أُطلِقَ عليها لقب فيلسوفة ؟

يقول المؤلف : "فى استطاعتنا أن نجيب فى إيجاز ، أن سبب التسمية يرجع إلى انشغالها بالفلسفة ، ودراستها لكثير من الموضوعات والمشكلات الفلسفية ، كما أنها أمرت بتأليف كتاب عن فيلسوف من الفيثاغورية المحدثة، رأت أن أفكاره لابد أن يعرفها الناس لما لها من أهمية ، كما أنها كانت على علم، وصلة مباشرة بأفكار السوفسطائيين القدماء ، وبمعلمى الخطابة من السوفسطائية الثانية فى عصرها ، وفضلاً عن ذلك كله فقد تعلمت هى نفسها من خلال صالونها الأدبى ، وحلقتها الفلسفية ، كما شجعت هى نفسها الآخرين أن يتعلموا. أما واقعة أنها كانت إمبراطورة ، فقد كانت ذات مغزى خاص ، إذ إنها لم تفعل ما فعله بعض الحكام السابقين من الرجال الأشداء من أمثال "نيرون" و "دومشيان" – الذين حرَّموا الفلسفة دراسةً وتدريساً ، واضطهدوا الفلاسفة ونفوهم خارج البلاد ، وأعدموا أساتذتهم على نحو ما فعل "نيرون" مع سنكا الفيلسوف الرواقى الكبير ، عندما أمره بالانتحار ، فقطع الرجل شرايينه وترك الدماء تسيل حتى قضى نحبه ، أما "جوليا دونا" فقد استخدمت سلطتها الإمبراطورية فى حماية الفلسفة ، كما أنها ساعدت على ازدهار الفلاسفة ، وأعطتهم المكانة التى يستحقونها ، وأمرت بتأليف الكتب عنهم ، وتحليل أفكارهم ، ومناقشة فلسفاتهم ، وليس ذلك بالإنجاز الهين. (صفحات ٢٣١ – ٢٣٢).

ماكرينا.. Makrina

"ماكرينا" (٣٣٠ – ٣٧٩م) قديسة ، وفيلسوفة يونانية ، وصاحبة أقدم نظام دينى لزهد النساء وتنسكهن ، نقل إلينا حياتها شقيقها جريجورى Gregory (٣٣١ – ٣٩٦م) أسقف نيسا Nyssa وأحد آباء الكنيسة الشرقية. وقد خصص المؤلف الفصل السابع من كتابه "نساء ... فلاسفة" لعرض آرائها فى وحدة النفس وخلودها ، والزهد أو النسك والغنوصية ، ثم تحدث عن "ماكرينا .. . وروح المرأة" ، و "ماكرينا. .. والخلق" ، والتجسيد والقيامة. ودافعت ماكرينا عن النظرية المسيحية فى البعث والقيامة ، وهى تستمد معظم أدلتها من الكتاب المقدس ، ولهذا نجد فى نهاية المحاورة بين "ماكرينا وشقيقها" جوانب لاهوتية ممتعة ، وأفكاراً كثيرة عبر عنها شقيقها بعد ذلك فى كتابه "خلق الإنسان" – كانت شقيقته العظيمة قد عرضتها ودافعت عنها. (ص٢٥٨)

ويرى الدكتور إمام عبد الفتاح إمام مؤلف "نساء. .. فلاسفة" "أن الإنصاف يقتضى أن يقوم باحث بالكتابة المفصلة عن هذه المفكرة التى تعد من أعظم نساء القرن الرابع الميلادى ، لما كان لها من ذهن ثاقب ، وفكر فلسفى عميق ، ولهذا احتلت مكانة رفيعة بين (النساء. .. الفلاسفة) فى العالمَ القديم". (ص٢٥٨)

هيباشيا. .. فيلسوفة الإسكندرية :

فى الفصل الثامن والأخير من هذا الكتاب ، قدم المؤلف عرضاً موجزاً عن "هيباشيا". .. فيلسوفة الإسكندرية التى ولدت فى جو ثقافى حرص عليه الملوك البطالمة ، فدرست الفلسفة والرياضة والفلك وبزت أهل العصر فى هذه المعارف ، وتمكنت من الفلسفة ولاسيما فلسفة عمالقة الفكر اليونانى

"أكسنوفان" و "فيثاغورس" و "أفلاطون" و "أرسطو" ، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة ، وحاضرت فى الميتافيزيقا والإبستمولوجيا ، وأمدتها الفلسفة بالأسس النظرية التى استخدمتها فى تقييم النظريات الفلكية والهندسية، وكانت عقلاً ناضجاً شهيراً حتى قبل أن تصل إلى سن الثلاثين. لقد عاشت فى بيئة عقلية كانت تُسْتَبعد منها النساء ، وعُيَنت فى منصب لم تسبقها إليه امرأة قط : رئيسة لمدرسة الأفلاطونية الجديدة ، وعُرِفَت فى عصرها بالفيلسوفة العظيمة.

هذه "الفيلسوفة العظيمة" تعرضت للاضطهاد من جانب التعصب الدينى، أو الهوى الدينى بمعنى أدق فتمزقت أشلاء ، وألقيت أطرافها المرتعدة – فيما يقول جيبون – فى لهب النار. غير أن الاهتمام بهذه المرأة الممتازة استمر فى الماضى وامتد ، وإن كان على فترات متقطعة ولأسباب منوعة. وتزايد الاهتمام بـ "هيباشيا" مع نشأة الحركة النسائية ، والبحث المتزايد عن الجهود النسائية فى الماضى ، وجمع الوثائق التى تثبت إسهامات النساء فى النشاط الأدبى أو الفلسفى أو العلمى. وحديثاً ظهرت مجلة فى الفلسفة النسائية تحمل اسم "هيباشيا" تكريماً للجدة الأولى. وهى "مجلة فلسفية" رئيسة تحريرها مارجريت سيمونز ، وتصدرها جامعة الينوى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى النهاية لابد أن نقول مع جورج سارتون إن هذه المرأة العظيمة "كان لها شرف مزدوج : فهى أول من اشتغل بالرياضيات من النساء ، وهى من أوائل الذين استشهدوا فى سبيل العلم.. . ".

بقى أن نقول إن هذا الكتاب الذى عرضنا له هو حلقة من سلسلة رائعة عنوانها "الفيلسوف ... والمرأة" يكتبها الدكتور إمام عبد الفتاح وتصدر عن مكتبة مدبولى بالقاهرة. بدأها المؤلف بكتابه الأول "أفلاطون ... والمرأة" ، ثم أعقبه بكتاب آخر ، هو "أرسطو. .. والمرأة" ، ثم ثالث "الفيلسوف المسيحى.

.. والمرأة" ، ثم هذا الكتاب الذى عرضناه له "نساء. .. فلاسفة" ، والجدير بالملاحظة أن العنوان الذى وضعه المؤلف لهذا الكتاب هو "نساء فلاسفة فى العالَم القديم" ، لكن الناشر – لغرض فى نفسه – جعل عنوانه "نساء. .. فلاسفة"، والعنوان الأول أكثر دقة لأنه يكشف عن عزم المؤلف إصدار كتب أخرى تتناول نساء فلاسفة فى العصر الحديث، وهذا ما أكده المؤلف فى نهاية كتابه حيث ذكر أن له تحت الطبع كتابين هما "جون لوك ... والمرأة" ، و"نساء فلاسفة. .. فى العصر الحديث".

وإذا كانت هذه السلسلة الرائعة دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد ثقتها بنفسها ، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف ، فإنها – وبالقدر نفسه – دعوة إلى الرجل العربى كى يعيد النظر فى المفاهيم والتعميمات الخاطئة المتعلقة بالمرأة.

تميز الكتاب بالعرض التاريخى الشيق ، والتحليل الفلسفى العميق. وإذا كان معيار الكتاب الجيد هو أن يشعر القارئ بعد قراءته له أن شيئاً ما أضيف إلى عقله ووجدانه ، فلا شك أن كتاب "نساء ... فلاسفة" – وفقاً لهذا المعيار – هو كتاب جيد .

وكم كنا نود لو أن الدكتور إمام عبد الفتاح الذى قدم دراسة فلسفية رائعة لصور من الاستبداد السياسى بعنوان "الطاغية" ربط بين خضوع الرجل لاستبداد الطغاة وخضوع المرأة لاضطهاد الرجل ، فالصلة وثيقة بين ما يعانيه الرجل فى مجتمعاتنا العربية من قهر وظلم واستبداد سياسى وما تعانيه المرأة من اضطهاد الرجل واحتقاره لها. ولا شك أن استبداد نظم الحكم التى حكمت ومازالت تحكم المجتمعات العربية والإسلامية وانعكاس ذلك على علاقة الرجل بالمرأة كان جديراً ببعض الاهتمام من جانب المؤلف، وبخاصةٍ أنه يدخل فى

صميم اهتمامه الرئيسى.

كما أننا نأخذ على المؤلف إشارته فى استحياء (هامش ص٢٠) إلى موقف العقاد من المرأة الذى عرضه هذا الأخير فى كتابه "هذه الشجرة" ، وكان الأجدى أن يفرد المؤلف صفحات عديدة فى متن الكتاب لتفنيد وجهة نظر العقاد التى تحط من شأن المرأة. أننى لا أفهم كيف يتأتى لكتاب يجعل همه الأول ، ومنذ السطر الأول فيه ، تفنيد الفكرة الساذجة القائلة : "إن عقل المرأة أقل من عقل الرجل" ، ولا يتصدى بوضوح وحسم لوجهة نظر العقاد التى جعلت من هذه الفكرة الساذجة محوراً لها. إن العقاد أقرب لنا من أرسطو ، وتأثيره على القارئ العربى أشد وأعمق ، وبالتالى كان الأجدر بالمؤلف أن يكون تصديه للعقاد أوسع وأشمل من تصديه لأرسطو.

حوار بين برتراند رسل وديفيد هيوم (*)

هيوم: إننى قد اطلعت يا سيد رسل على كتابك الأخير عن "المعرفة البشرية". ولا اعتزم الدخول معك فى نقاش حول المسائل المتعلقة بالنسبية أو علم الفلك ، إذ ليس فى وسعى الخوض فى هذا المجال. بل إننى أشعر براحة أكبر فى تناول المسائل الخاصة بالاستقراء والاحتمال ، وهما الموضوعان اللذان أفضت فى حديثك عنهما.

رسل: سوف يسعدنى ذلك يا سيد هيوم ، فكم تمنيت طويلاً لو أنى دخلت معك ذات يوم فى حوار.

هيوم: لقد صادفتنى صعوبات كثيرة فى تتبع عرضك لمبدأ التصديق ، فأنت تتحدث عن درجات لتصديق العقلى ، وأنا لا أعرف كيف يمكن أن تتصف درجات التصديق بأنها عقلية.

(*) كتب ريشنباخ هذا الحوار عام ١٩٤٩ تحت العنوان الآتى:

"A Conversation Between Bertrand Russell and David Hume", the Journal of Philosophy, Vol. 46 No. 17, pp. 545-9.

وقد قمنا بترجمة هذا الحوار ترجمة كاملة ، وقد وقع اختيارنا على هذا الحوار ، وذلك لعدة أسباب:

أولاً: إنه نص للفيلسوف "ريشنباخ" الذى كانت فلسفته العلمية هى موضوع أطروحتنا للدكتوراه.

ثانياً: يدور الحوار حول الاستقراء والاحتمال اللذين يشكلان ركيزتين أساسيتين للمنهج العلمى.

ثالثاً: طرافة الفكرة ، إذ عرض ريشنباخ بعض أفكاره الفلسفية بأسلوب جديد – بالنسبة له على الأقل – وهو أسلوب الحوار المُتَخيّل بين فيلسوفين ينتمى كل واحد منهما إلى عصر مختلف.

رابعاً: إن شخصية هيوم التى تخيلها ريشنباخ إنما تعبر ، فى واقع الأمر ، عن أفكار ريشنباخ نفسه ، لقد وضع ريشنباخ على لسان هيوم المتخيل بعض الانتقادات التى أراد ، هو نفسه ، أن يوجهها إلى رسل. ولذلك نحن نعتقد أنه من الممكن ان نستبدل بعنوان هذا الحوار عنواناً آخر: "حوار بين هانز ريشنباخ وبرتراند رسل".

رسل: لابد لك أن تسلم يا سيد هيوم بأننا نقوم بوضع التمييزات المعقولة على اعتبار أنها دجات لاعتقاداتنا. فنحن نعتقد أن زرادشت شخصية حقيقية، وأن "المسينيين" (*) The Myceneans كانوا يتحدثون اللغة اليونانية القديمة ، وأنه لا وجود لجنيات البحر. ومن ثمّ فإن الشخص العاقل هو الذى يعرف أيًا من هذه الأمثلة يصلح أن يكون أساساً لاعتقاده.

هيوم: الواقع أننى لا أفهم على وجه الدقة ما الذى تقصده ، لأنه إذا كانت الأمور الواقعة التى نبحثها مجهولة ، فإننى لن أعرف الاعتقاد الذى يمكن وصفه بأنه معقول.

رسل: إن الاعتقاد المعقول هو اعتقاد الرجل العاقل.

هيوم: والرجل العاقل هو الذى لديه اعتقادات معقولة. أليس هذا ما تريد قوله؟

رسل: كلا ، ليس هذا ما أريد قوله على وجه الدقة ، وإلا وقعت فى دور منطقى . ومع ذلك فلابد من وجود اعتقاد معقول ، وإلا انتفى الانتظام والترابط من مجال المعرفة البشرية.

هيوم: أيُعَد هذا دليلاً منطقياً؟

رسل : يا سيد هيوم لقد ذكرت أنت نفسك أن هناك بعض الاعتقادات التى لا يمكننا التخلى عنها تماماً ، فلماذا كل هذا الحديث عن التشكك فى شىء ، طالما أننا لا نستطيع أن نشك فى كل شىء ؟ إنه ليس من الأمانة أن نبدأ بالشك الشامل على نحو ما فعل ديكارت.

(*) أهل مدينة "مسيني" القديمة في جنوب اليونان ، والتي أنشأها القائد الشهير أبامينونداس عام ٣٧٠ ق.م. (المترجم).

هيوم: صحيح أننى قلت إن لدينا بعض الاعتقادات الراسخة ، وأظن أننى قد أوضحت أيضًا أنه لا يجوز إقامة دليل منطقى استنادًا إلى مثل هذه الاعتقادات.

رسل: هل تقصد أننا لا ينبغى أن نعتقد فى الاستقراء؟

هيوم: كلا ، لقد قلت إننى أؤمن بالاستقراء ، غير أنني لا أجد سببًا ضروريًا لذلك ، لأن وجود اعتقاد ما ليس دليلاً على صحة هذا الاعتقاد.

رسل: ألا تعتقد أن زرادشت كان موجوداً ؟

هيوم: لقد شرحت ذلك بدقة فى كتابك (*) وترجمت هذا الاعتقاد إلى تكرار السجلات التاريخية. إن لهذا الاعتقاد درجة من الاحتمال يُعَبَّر عنها بتكرار الحدوث.

رسل: هل توافق ، يا سيد هيوم ، على التفسير التكرارى للاحتمال ؟

هيوم: إننى أميل إلى قبول هذا التفسير ، ولقد أكدت على الدوام أن الضرورة الفيزيائية يمكن ترجمتها إلى لفظ "دائماً" ، كما علمت أنك وغيرك قد اعترفتم بفضلى فى استبعاد هذا التصور الميتافيزيقى للضرورة . فإذا كان ثمَّة معنى لمفهوم الضرورة فلابد من ترجمته إلى ارتباطات يمكن ملاحظات. وإذا كنت قد أكدت على التفسير التكرارى للاحتمال ، فالضرورة تعنى: أن وجود (أ) ، يلزم عنه دائمًا وجود (ب) في حين أن الاحتمال الذي نسبته ٨٠% يعني: أن وجود (أ) يلزم عنه وجود (ب) فى ٨٠ % من الحالات .

(*) يقصد كتاب "رسل": "المعرفة البشرية – مداها وحدودها"

Human Knowledge - Its Scope and Limits

الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٨ في لندن عن دار نشر: George Allen & Unwin LTD

رسل: ولكنك ، يا سيد هيوم ، تتحدث بالطريقة نفسها التى يتحدث بها ريشنباخ.

هيوم: قد يكون من الأفضل القول بان ريشنباخ هو الذى يتحدث بطريقة مشابهة لطريقتى. إننى لا أؤيد ، بطبيعة الحال ، كل ما قال به ريشنباخ. فهو يرى أن فى وسعه تقديم تبرير للاستقراء. أما أنا فلدى أفكار مختلفة عن هذا الموضوع. وكما تعلم فإنه من العسير إن لم يكن من المستحيل أن يغير المرء من آرائه. غير أن ريشنباخ قد أخذ، على الأقل ، نقدى للاستقراء مأخذ الجد. ولم يعترف بأى نوع من أنواع الاعتقاد العقلى.

رسل: ولكنني قمت باستخدام الوسائل الرياضية لتحليل الأساس الذى يدفعنا إلى الاعتقاد فى الاستقراء. هل اطلعت على معالجتى الرياضية للاستقراء؟

هيوم: إن العلم الرياضى ، يا سيد رسل ، يقتصر على معالجة علاقة الأفكار بعضها ببعض ، ولا ينبئنا بشىء عن أمور الواقع. لقد علمت أنك طبقت مبدئى مستخدمًا كل الأساليب الفنية المعقدة للمنطق الرياضى ، وأنك قد أثبت أنه يمكن رد الحساب إلى المنطق ، ولذا فهو فارغ. ولا شك أنك تتفوق علىَّ بدرجة كبيرة فى هذا المجال ، لأنك عالِم رياضيات فى حين أننى لست كذلك. فكيف إذن تقول إن الرياضيات يمكنها إثبات الاستقراء؟

رسل: إننى لم أقل ذلك ، بل على العكس ، قلت – مثلك – إن الرياضيات لا يمكنها أن تحقق صحة الاستقراء ، وإن الاستقراء يحتاج إلى ركيزة من خارج مجال المنطق لا تستند إلى التجربة.

هيوم: هل قلت ذلك حقاً ؟ أظن أننى قرأت شيئًا كهذا من قبل. لقد ثار جدل كبير من هذا النوع فى المذاهب العقلية التى شبهها "بيكون" بنسيج العنكبوت :

فأنت تعلم أن العنكبوت ينسج خيوطه من المادة التى يستخرجها من جوفه. وعلمت أنه بعد موتى ظهر فيلسوف يقول إننى قد أيقظته من سباته الدجماطى(*) وأكد هذا الفيلسوف على وجود معرفة تركيبية قبلية. ولكن ما جدوى استيقاظه من سباته ، إذا كان فى آخر الأمر قد ارتد إلى نوع آخر من المعتقدات الدجماطيقية؟

رسل: إننى لم أقل بأفكار تركيبية قبلية.

هيوم: كلا ، إنك قلت بمبدأ مستمد من خارج مجال المنطق ولا يستند إلى التجربة . فهل ثمّة فرق ؟

رسل: يا سيد هيوم ، لابد من الاعتراف بأنه قد ثبت إخفاق المذهب التجريبى كنظرية فى المعرفة.

هيوم: لماذا؟ لأنك لا تستطيع الكف عن وصف الاعتقاد بأنه "عقلى" ، ولأنك تعتقد أن القابلية للتصديق لا يمكن التعبير عنها من خلال تكرار الحدوث. إن كل محاولة لتفسير مفهوم الاحتمال بطريقة مختلفة عن طريقة تكرار الحدوث لابد أن تؤدى إلى ميتافيزيقا عقلية. ليس المذهب التجريبى هو الذى ثبت إخفاقه ، بل إن الإخفاق قد نشأ من محاولة وضع الاعتقاد فى المكان الذى ينبغى أن يشغله حساب النسب الصحيحة.

رسل: هل تعتزم تطبيق هذه النظرية بكل نتائجها يا سيد هيوم ؟

هيوم: كم كنت أود أن تفعل أنت ذلك ، لأنك مهيأ لذلك أكثر منى. ما الذى اضطرك إلى التوقف عن الاستمرار ؟ ولماذا لا تعاود قراءة مؤلفات ريشنباخ مرة أخرى ؟ إننى اعتقد أنه كان يقول على الدوام بضرورة استناد

(*) يقصد الفيلسوف الألمانى "إيمانويل كانط" (١٧٢٤ – ١٨٠٤) (المترجم).

نظريته إلى تعاقبات متناهية ، كما أردت أنت أن تفعل. وهل تعتقد حقًا أن ريشنباخ لم يرد على حجتك الخاصة بالارتداد اللامتناهي؟

رسل: لقد قال بأنه أوقف الارتداد عند مستوى معين بواسطة الترجيح الأعمى. ولكن كيف أمكنه ذلك؟ يتحتم عليه أن يثبت أن هذا الترجيح أكثر صدقاً من أى ترجيح آخر ، وأن يؤدى البرهان للعودة مرة أخرى إلى الارتداد اللامتناهي.

هيوم: إننى لست متأكداً بدرجة كافية من صحة حجتك ، إنه لا يعنينى الدفاع عن ريشنباخ – الذى استشهد بي فى أحيان كثيرة – ولا أدرى إن كنت أحبذ ذلك أم لا ، ولكن حسب علمى ، فإنه قام بوضع ترجيحاته العمياء لأسباب أخرى غير الاحتمال؟

رسل: ما هو ياترى السبب الآخر للترجيح؟

هيوم: لقد وضع ترجيحاته لأنها وسائل لتحقيق هدفه، لا لأنه يملك ما يبرر الاعتقاد في صحة هذه الترجيحات.

رسل: ولكن إذا كانت بغيته الوصول إلى الحقيقة ، فكيف يمكنه القيام بترجيح دون أن يكون لديه ما يبرر اعتقاده فى صدق هذا الترجيح؟

هيوم: هذه هى بغيته على وجه الدقة . لقد أوضح ريشنباخ أن لديه ما يبرر القيام بترجيحات، والتصرف على هدى هذه الترجيحات دون أن يكون لديه ما يبرر الاعتقاد في صحتها. فهو يقول إن هذا هو السبيل إلى التغلب على نزعتى الشكية. وإننى فى واقع الأمر متردد فى قبول حجته ، ومع ذلك فهى تتضمن شيئاً ما أقبله.

رسل: ما هو ياترى ؟

هيوم: إنه الإصرار على استبعاد الاعتقاد فى صدق الاستقراء من مجال المنطق.

رسل: إننى لا أريد منطقاً يستغنى عن الاعتقاد فى الصدق.

هيوم: هذا هو السبب فى أن منطقك لا يمكنه تبرير الاستقراء.

رسل: ولكن يمكنني أن أثبت بطلان مبدأ ريشنباخ فالاستقراء ، كما يمكننا لتوصل إلى فئات معينة لا يصلح بالنسبة لها تطبيق مبدأ الاستقراء.

هيوم: هل تظن أنه يمكنك تكذيب الاستقراء بتقديم أمثلة بحيث تكون نتيجته غير صحيحة؟ لقد قيل لى إنهم قد اكتشفوا أنواعاً من البجع الأسود، ومع ذلك لم يؤد هذا الكشف إلى التخلى عن الاستقراء.

رسل: لماذا تدافع عن ريشنباخ يا سيد هيوم ؟

هيوم: يبدو لى أنه قد حقق فى مجاله ما حققته أنت فى مجالك ، فإذا كنت قد قمت من جانبك باستبعاد المبادئ التركيبية القبلية من مجال الاستقراء الرياضى ، فقد استبعد هو هذه المبادئ من مجال الاستقراء الفيزيائى.

عند هذه اللحظة سُمِعَ صوت آتٍ من أعلى(*) يقول:

– "كف عن انتقادى يا ديفيد هيوم ، فما زال هناك مكان لك فى السماء المرصعة بالنجوم التى تعلوك".

رد هيوم قائلاً:

– "أبدا"

ثم عاد أدراجه إلى الجحيم.

(*) مرة أخرى يشير كاتب الحوار إلى الفيلسوف الألمانى كانط بوصفه صاحب هذا الصوت. (المترجم).